أرض السنافر

عمر الجباعي

أرض السنافر

سلسلة شهادات سورية -30- أرض السنافر
عمر الجباعي

رسم الغلاف: جزء من بوستر العرض المسرحي «دوشكا»،
وهو من تصميم الفنانة «إيمان نوايا»

الطبعة الأولى 2018

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

قسم من هذه النصوص نشر بين عامي 2014 و2018 في: شبكة جيرون الإعلامية، صحيفة العربي الجديد، The Syria Campaign، صحيفة المدن الإلكترونية، مجلة Herbst النمساوية المختصة بالمسرح، وقسم آخر ينشر هنا للمرة الأولى.

كيف تحول ميرخولد إلى كلاشنيكوف؟

ما الذي يمكن أن تفعله عندما تكون خريج قسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق؟

يمكنك أن تفعل الكثير: قد تصبح كاتباً، أو مخرجاً، أو صحفياً، أو عاطلاً عن العمل، أو أي شيء آخر، ولكن أهم ما يمكن أن تقوم به، لكي تفعل كل ذلك أو أياً منه، هو أن تلبي نداء الوطن وتمارس الخدمة العسكرية الإلزامية، وإن كنت لا تدري سرّ ذاك النداء.

وهكذا تنطلق خلف نداء الوطن الإلزامي حاملاً معك بويا «الجسر» لحذائك العسكري، وبودرة «هامول» للخط الفاصل بين ردفيك، وآمالاً طموحة لما ستفعله بعد أن تُتِمَّ واجبك المقدس.

تعيش ظروف دورة الإعداد العسكري (دورة الأغرار كما تسمى) والابتسامة لا تفارق ثغرك، وهل هناك أجمل من قتل الأب كما ينصح فرويد؟! أجل قتل الأب، فكم مرةً خرجتَ من المنزل غاضباً؛ لأن والدك قال لك: «عم تلعب شدة بدل ما تدرس يا كلب، خود شهادة وروح عميل يلي بدك ياه بعدين». هناك ينتقمون لك، فما إن تنتشي من صوت فيروز قبيل الاجتماع الصباحي حتى يبشرك قائد دورتك في الاجتماع إياه بأنّه لا يتنازل لأن يمسح خراء مؤخرته بشهادتك تلك.

آخ يا سيدي لو كنت أعرف ما تحتاجه مؤخرتك وأنا أكدح في كتاب الجغرافيا للصف الثالث الثانوي.

تنهي دورة الإعداد العسكري-النفسي تلك، ويتم فرزك إلى موقع من مواقع الجيش، موقع عسكري (أو ميداني بحسب الوثائق الرسمية) إن لم تكن محظوظاً، أو موقع إداري إن كنت محظوظاً، أو يتم فرزك إلى منزلك إن كنت مدعوماً.

أين يمكن الاستفادة من شهادتي المسرحية بين صناديق الرمانات اليدوية ولوحات الرادارات وسبطانات الـ (T-62)؟ هذا ما كنت أفكر فيه قبيل الفرز، واتضح لي بشكل قاطع أن خيالي أضحل بكثير من أفعال القيادة الحكيمة، التي تجيد مسح الأدمغة تماماً كما تجيد مسح المدن، فالاهتمام بمخ المقاتل وبصلته السياسية (مع تجاهل المخيخ لأنه يحتوي على مركز التوازن) من أولويات قيادتنا، لذلك كرست قسماً خاصاً بتعقيم عقول المقاتلين تحت اسم «المسرح العسكري».

هذا الاختصاص العسكري المستورد من الجيوش الأوربية هو أهم رافعة لمعنويات بواسل جيشنا، وأنا أصبحت أحد براغي هذه الرافعة.

صالة كبيرة مجهزة بخشبة متطورة وأحدث معدات الإضاءة والصوت، وفرقة من الممثلات والممثلين لم أتشرف بلقاء معظمهم لأن رواتبهم كانت تصلهم إلى المنزل. أما من سعدت بلقائهم من الفرقة فكانوا لا يأتون إلا مرتين في الأسبوع ليوقعوا حضورهم ويمضوا على عجل.

كانت هناك مشكلتان فقط في جو الإبداع العسكري هذا؛ إذ لم يرقَ أيٌّ من مشاريعي، أو مشاريع زملائي المجندين لخدمة الوطن، إلى ذائقة السيد العقيد مدير المسرح، هذه المشكلة الأولى، أما المشكلة

الثانية فكانت أننا ممنوعون من دخول صالة المسرح (الصالة مكيفة)، وخاصة أنها صالة مجهزة بتقنيات ممتازة، لذلك علينا الحفاظ عليها كي تلبي صالتنا رغبات المخرجين الذين لم نرَ أياً منهم، أما نحن فلسنا سوى مجندين في الجيش.

بعد بضعة شهور أصبح السلاح الفردي الخفيف الروسي الصنع، الذي يرمي رشاً ودراكاً، والمدعو «كلاشنيكوف» أهم هواجسي، أعد المخازن والطلقات، أقوم بحركة الأمان، أتمنطق بالسلاح الفردي الروسي الصنع كلاشنيكوف وأقف على مدخل المسرح مانعاً أياً يكن من دخوله... الصالة مجهزة أحسن تجهيز يا أخي، افهمني أرجوك.

مع امتداد أيام الخدمة بتّ أرى أيّ حكيم يقود هذا الرهط من المجندين (المسرحيين سابقاً) وهذه الصالة ذات التجهيزات اللافتة، هذا العقيد الذي سبق له أن خاض عدة عروض في مسارح الإنزال المظلي والحرس الجمهوري لم يكن رجلاً عادياً، كان نهماً لقراءة كراسات الحزب والإدارة السياسية بشكل مستفز، فيما أنا أروح وأغدو مع الأخ كلاشنيكوف أمام باب المسرح مركزاً إحدى عيني على ذلك الباب، وسارداً بالأخرى بعض الأفكار والخيالات المريضة أحياناً، حتى خطر في بالي ذات مرة أن السيد العقيد ربما، ربما ليس أكثر، لم يقرأ شيئاً عن المسرح، أيعقل هذا؟!! ألا يجب علي أن أنبه سيادته إلى هفوة قد تودي بكل مجهودنا الحربي إلى الهاوية؟

وجدت نفسي في مكتبه أثناء الاستراحة بين نوبتي حراسة، بكلّ تبجيل وجديّة وبلغة حريصة على حدود البلاد قلت له:

– سيدي العقيد، مذ أصبحتَ مديراً لهذا الصرح الرائع لم يتسنَّ لي أن أبارك لك منصبك الجديد.

- شكراً.

- سيدي، كنت أقول لنفسي الأمّارة بالسوء إنك ربما لم تقرأ شيئاً عن المسرح، مع أنّ هذا ضروري جداً لسيد في مثل موقعك.

نظر إليّ السيد العقيد نظرة استهجان ازرقّت لهولها أطراف أصابعي، وقال منفعلاً:

- معقول؟؟!! أتراني أبلهَ أم معتوهاً حتى لا أقرأ عن المسرح؟؟!!

ثم وقف بغضب ضارباً على سطح مكتبه، واتجه إلى مكتبة تضم أقوال القائد الخالد حافظ الأسد، ودراسات السيد العماد مصطفى طلاس في أقوال القائد الخالد حافظ الأسد، واستلّ من بين الكتب كراساً صغيراً ولوّح به أمام وجهي الذي بات لونه أقرب إلى البنفسجي:

- أترى هذا؟!! أتراه؟؟! لم أجلس على كرسيّ الإدارة في المسرح قبل أن قرأت هذا الكراس.

كان الكراس ذا غلاف أسود خُطَّ عليه بلون ذهبي لامع العنوان التالي: «النظام الداخلي للمسرح العسكري»، فضحكت. أجل، ظننتها نكتة.

- سيدي، ليس هذا ما قصدته، كنت أقصد أن تقرأ شيئاً عن ميرخولد مثلاً أو ...

- مير ماذا؟؟!!

- ميرخولد سيدي، مخرج روسي من تلامذة ستانيسلافسكي لكنه ذهب في اتجاه ...

- روسي؟؟!!

- أجل.

- مثل كلاشنكوف يعني.

- أجل.

- ولكنه لا يرمي رشاً ودراكاً.

وجلجلت ضحكة السيد العقيد لتنير أحدث أنواع «البرجكتورات» في الصالة التي توازي بتقنياتها دار الأوبرا في ساحة الأمويين، ورددت ضحكته مكبرات الصوت الألمانية الصنع، وفي عمق الخشبة تراقصت ظلال الجنود وهم يقودون فيسفولد ميرخولد ليعدم بأمرٍ من ستالين. أما في مقدمتها فتراقصت ظلال الميداليات المعلقة على صدر ميخائيل كلاشنكوف مرددةً صيحة النصر: هوراا، هوراا.

المُخرج الضاحك

حبة عرق تسيل ببطء على تجاعيد العين الجانبية تاركةً خلفها خطاً متعرجاً، تغمَض العين وتفتَح بسرعة، لا وقت لإغماضة طويلة، يتسع الكادر قليلاً ليكشف لنا وجهاً يكسوه شعر أشعث، وقد لوى مغلاق (الروسية) خد صاحبه الذي يصوب إلى عدو قد يظهر في أيّ وقت، يزداد اتساع الكادر لنرى الأشعث وقد وخطه التعب والشوق واللاجدوى متمترساً خلف ساتر من أكياس الرمل، كالحةً تنزف رملها ببطء من ثقوب خلّفها الملل والثبات والمعارك.

يطل رأس من خلف جدار بعيدٍ ملونٍ بكلمات عن الحرية والكرامة، ترتج البندقية ويغيب الرأس، ترتج البندقية مرة ثانية وثالثة في رشقات سريعة رغم غياب الرأس. بضع ثوان وتسقط القذيفة، وووووووووو بفففف، وهناك من يسمعها زززززززز بفففف... وهناك من لا يمهله الوقت لسماع شيء.

جنود يسيرون باحتراس متجاوزين الساتر، فيما الأشعث يمسح عرقه بما تبقى من كم بدلته العسكرية المموهة. إنه زمن التمويه، كل شيء مموه، المعاني والدلالات والشعارات والأرواح. ما زال الجنود يسيرون باحتراس، والأشعث خلف المتراس، والكل منهك، وإن باحتراس.

دون وووو أو زززز ينفجر الجدار الملون، وتختفي سرية الجنود الذين تجاوزوا الساتر.

يضع الأشعث بندقيته جانباً، يلف سيجارة تبغ ويشعلها، يمتصها بهدوء، لقد وقع الانفجار، لديه بعض الوقت كي يسترخي قبل احتمال أيّ هجوم. ولا يهم الأشعث كيف انفجر الجدار ولماذا ومن فجّره، ما يهمه هو أن يبقى على قيد الحياة.

يتسع الكادر أكثر، الحي محاصر بالحواجز، بالقذائف، بسرايا الجنود المحترسين، تعبره بين القذيفة ورصاصة القناص بعض الهتافات المطالبة بإسقاط النظام، ونعوش المهاجرين إلى الموت.

تطل الرؤوس من خلف ما تبقى من جدران الحي وتختفي بسرعة لتظهر مكانها فوهات بنادق وقواذف الصواريخ المضادة للحياة، يطغى صوتها على صوت الهتافات، ويستمر عبور الموت إن استطاعت النعوش إلى ذلك سبيلا.

وووووبفففف ززززززبفففف، بففففف، بفففففففف، بفففففففففف، بففف

يضطر الأشعث إلى مغادرة الساتر منسحباً، يحل محله أشعث جديد، شعيرة التسديد قبالة العين، والمغلاق يثني خد الأشعث الجديد.

للوهلة الأولى يبدو المشهد الجديد نسخة عن المشهد القديم، ولكن مع عكس الكادر، الأشعث الجديد يدخن أيضاً بعد الانفجار مباشرة، وثلة من الجنود تسير باحتراس متجاوزة الحاجز، ولكن في عكس اتجاه الثلة السابقة، وبين المشهدين، بين الأشعثين، بين سريتي الجنود المحترسين، اختلاف واحد رئيس: أن أبطال المشهد الجديد دُفعوا لأداء أدوارهم الجديدة.

كر وفر، تحرير وتحرير من التحرير، ثبات رغم الحركة، كبندول ساعات الحائط الخشبية القديمة، يروح ويأتي ولا يستطيع أن يزيد من الدقائق الستين للساعة، كل ما يفعله هو قضم مسنناته حتى ساعة الصفر.

الدخان يتصاعد من كل مكان، والسرايا متقابلة تفتك ببعضها، وبين السرايا أطنان من الخراب وملايين من صرر الذكريات والوجوه الخاوية، وأطفال أصبحت شواربهم أطول من أعمارهم، وبلد يغادر الخارطة.

هذا المشهد المأساوي يرسمه مخرج ضاحك، يتقن الكوميديا التهريجية، وتساعده شركة إنتاج ضخمة لا تهتم إلا بالربح كأي شركة إنتاج، ولكنها ترى أن ربحها الأكبر هو المخرج الضاحك المقيم في قصر مطل على موقع التصوير الكارثي هذا، وفي كل إطلالة يطلها المخرج الضاحك من قصره يتشظى الموقع أكثر. حلوله الإخراجية السوريالية تفاجئ البعض، وتضحك البعض، وتفتت ما تبقى من رمق، ولكنها تكرسه مخرجاً أبدياً على أطلال الموقع كما يبدو، رغم أنه أعلن غير مرة عن مدى أهمية موقع التصوير بالنسبة إليه، وإلى الشركة. فيما تستمر السرايا بالتطاحن والنعوش بالهجرة وصرر الذكريات بالمرور... والمخرج بالضحك.

تتلاشى الأصوات رويداً رويداً، ويغرق الموقع في العتم بهدوء.

أرض السنافر

«برّا تمثال لبابا سنفور رافع إيدو، شي بيشبه هتلر، أو قائد عم يؤمُر بالهجوم. جوّا صورة نصفية لبابا سنفور باللباس العسكري مع النظارات الشمسية وباقي تفاصيل المهابة».

-1-

أرض السنافر: من الشرق سور من القضبان الحديدية السوداء تتخلله ثلاث بوابات للدخول، لكلّ بوابة غرفة حراسة. كانت هذه البوابات تستخدم لإدخال الزوار من قبل ليطّلعوا على تاريخنا العسكري المجيد هاتفين بخلود بابا سنفور بطل الحرب والسلم، وابنه الدكتور سنفور المعظم قطز. نقاط الحراسة التي على هذه الجهة تُعدُّ هي الأخطر اليوم، لأن السور يفصل أرض السنافر عن طريق سريع للسيارات، فيمكن للعدو أن يمر بسيارته مسرعاً مطلقاً النار والفرار بالسرعة نفسها بعد أن يكون قد كبدنا خسائر في الأرواح والعتاد.

من الشمال السور نفسه مع حراسة، ولكن دون بوابات وغرف، من هذه الجهة وإليها تنفذ بعض الرصاصات الطائشة وغير الطائشة من حين إلى آخر، ونقطة حراسته هي الأخطر، لأن هذه الجهة تطل على

شارعين مشجرين يمكن للعدو أن يباغتنا من خلف أشجارهما، وفي الوقت ذاته سوره من القضبان الحديدية التي لا ترد الرصاص وإنما السيارات.

من الغرب سور إسمنتي مصمت فيه بعض الفتحات لإطلاق النار، عرفتُ لاحقاً أنها تسمى: طلّاقات. وعليه نقطة حراسة هي الأخطر، لأن هذه الجهة تطل على بساتين تمتد بيننا وبين قوى العدو، والجدار الإسمنتي يمنع الرؤية، لذلك قد يباغتنا العدو من هذه الجهة في أي لحظة، ولن ننتبه إليه إلا وهو بين أحضاننا، أو نحن بين أحضانه.

من الجنوب سور إسمنتي هو امتداد لسور الجهة الغربية، أو السور الغربي هو امتداد للسور الجنوبي، لا أعرف، ولكني أعرف أن نقطة الحراسة على هذا السور هي الأخطر، لأنه يطل على الحرش الفاصل بيننا وبين العدو، ومركز الحراسة فيه مبني على السور من الأعلى وليس في أسفله أو في ظله، لذلك فالحرس عرضة للقنص دائماً.

الحمد لله لم يحدث ذلك أبداً، لا أثناء خدمتي ولا قبلها ولا بعدها، كما لم يحدث شيء على المحارس الأخرى، ولكن هذا لا ينفي سطوة الخطورة التي كنا نعيش تحتها، فالقضية قضية مبدأ لا قضية حدوث، بالمبدأ يمكن أن يُقنَص الحرس، أو أن تعبر سيارة مسرعة وتطلق النار والقذائف الصاروخية ثم تفرّ مسرعة، هذا ممكن «صح ولا لأ»؟ إذاً الخطر قائم.

وسط الأسوار هذه يرتفع رمزان: تمثال لبابا سنفور واقفاً مرتدياً بزته العسكرية وهو يأمر بالهجوم على العدو في إحدى الحروب، وبناء دائري فاخر يضم صالة سينما تعرض فيها أشرطة سينمائية عن تلك الحرب، وفيها أيضاً تعرض كلمة بابا سنفور التي قالها عندما أعلن الحرب.

-2-

يستقبلني العميد كبير أرض السنافر مبتسماً، أكياس الرمل تسد أجزاء كبيرة من نوافذ مكتبه، وتسند الجدران والأبواب المؤدية إلى الخارج. سيادته يفترض أن لا منّة لي لكوني أخدم في جيش سنفوريا زيادة على المدة القانونية التي يلزمنيها القانون السنفوري، سنة ونصف من الخدمة الإلزامية القانونية، وسنة ونصف من الخدمة الاحتياطية لا ينبغي أن تعطيني الحق في أن أقول: كفى، لقد تعبت ومللت. فهذا في النهاية جيش البلاد... بلادي التي لها حبي وفؤادي.

يستخدم سيادة العميد كلمات دافئة في حديثه معي، كلمات تجعلني أشعر أنني أحد أفراد العائلة: عمّي، ابن أخي، ابني.

ويذكّرني دائماً بأنه يبذل كل جهده لتأمين ما يحتاج إليه السنافر، ولا فرق عنده بين سنفور ضابط وسنفور صف ضابط، أو بين سنفور مجند وسنفور متطوع. في أرض السنافر الرائعة لا فرق بين عنصر وآخر حتى بالتقوى، رغم أنها تُعدُّ من خطوط القتال الأولى؛ إذ لا تبعد عن العدو أكثر من تقطيعة شارع. أرض السنافر تشبه في روحها أرضنا الأم: سنفوريا الكبرى، حيث التعاون والمحبة وحيث حكمة بابا سنفور تنجي القرية دائماً من أي خطر. تحيا سنفوريا، يحيا بابا سنفور.

-3-

مرة عندما كنت إنساناً عادياً زرت المكان، وقادنا أحد السنافر يومها إلى هذه الصالة شارحاً لنا كيف صوّر الجيش السنفوري الباسل 17 دقيقة من الحرب، 17 دقيقة من حرب استمرت 18 يوماً. بعدها عرضوا لنا خطاب بابا سنفور الذي يمتد لثماني دقائق ومما يقوله فيه

إننا لسنا هواة قتل وتدمير. ما لدينا عن تلك الحرب اليوم هو 25 دقيقة، ثلثها تقريباً خطاب لبابا سنفور يقول فيه إننا لسنا هواة قتل وتدمير، وما تبقى لقطات متفرقة لدبابات ومدافع وطائرات وسنافر أقوياء يتقافزون على مبنى للمراقبة في هضبة الأرنب القرمزي المحتلة. تم بناء أرض السنافر لحفظ هذه الثروة الوطنية.

آه صحيح، هناك غرف أخرى في البناء فيها صور لبابا سنفور، وأوسمة لبابا سنفور، وخطابات لبابا سنفور، وأشياء أخرى كلها لبابا سنفور.

وفيها مسرح تعرض فيه مسرحية انتصارنا في الحرب أكثر من مرة في اليوم، العجيب أنها مسرحية بلا نهاية، أقصد درامياً هي بلا نهاية، فالحرب كما قيل لنا بدأت في اليوم السادس من شهر الفلاحة وانتهت في الرابع والعشرين منه، ولكن في هذه المسرحية تنتهي الحرب في الثامن من شهر الفلاحة؛ أي بعد يومين من انطلاقها حين وصل سنافرنا إلى حفاف هضبة الأرنب القرمزي، وباتوا على بعد مئات الأمتار فقط من حدود أرض السمّاق المحتلة. تتوقف المسرحية هنا، فلا نرى شيئاً عن الأيام الستة عشرة التي تليها، ليظهر بابا سنفور فجأة في شهر الحصاد وهو يرفع علم البلاد في سماء مدينة الأرنب القرمزي.

أما التمثال، تمثال بابا سنفور، فيقف في حديقة كبيرة أمام البناء المدور، معتمراً قبعته الشهيرة، لا خوذة، وشرح لنا دليلنا السنفور يومها أن التمثال وضِع عمداً بحيث يبدو مشيراً بيده للهجوم باتجاه هضبة الأرنب القرمزي، باتجاه جنوب غرب سنفوريا، كان الموقف مضحكاً للبعض، التمثال يقع في الطرف الشمالي الغربي لعاصمة السنافر التي أرخت جسدها أمامه، لذلك تبدو الإشارة وكأنها للهجوم

على العاصمة لا على الأرنب القرمزي. ولكن مَن ذا الذي يجرؤ على الضحك في حضرة السنافر وتمثال القائد الخالد بابا سنفور؟!

هل هذا مضحك حقاً؟!

«يالله! ما كان بدي إحكي عن هي الشغلات، بدي ركز على قصتي أنا بأرض السنافر، وراء در، إلى المحارس سر، أح نين أح نين...».

-4-

أقف على محرسي، أجلس، أقف، أتمشى، أجلس... أضيّع ساعتين كاملتين من الزمن في ذلك، ثم أعود إلى الغرفة/ المهجع بعد أن أسلم نقطة الحراسة لسنفور آخر. أتعلّم من هاتين الساعتين أن الحراسة من دون متّة أمر قاتل، فالزمن لا يمر بسهولة أثناء تفانيك في حراسة البلد: تنجو من الخطر فيقتلك الضجر... حسنٌ، سأحذف هذه الجملة، فهي مصطنعة وعلى وزن: أكتب لكِ بالأحمر لتدوم المحبة أكثر... بل هي حتى ليست على الوزن نفسه... سأحذفها.

أعود إلى الحراسة بعد أربع ساعات، هذه المرة معي عتادي الكامل: متّة وسكر وكأس وبمبيجة وإبريق فيه ماء وسخانة الكهرباء، أضع العتاد على ساتر أكياس الرمل، السواتر الترابية عادة ترفعها في وجه العدو، ما الذي يفعله هذا الساتر هنا؟ إنه ساتر داخل أرض السنافر، غريب، لكنه طاولة ممتازة للعتاد ولمدمدة الرجلين أثناء النوم، نمت مرة واحدة دون أن أمدمد رجلَي على الساتر فسرق سنفور مرح بندقيتي ليثير خوفي، فمن تُسرَق بندقيته أثناء الحراسة يُعلَّق من بندقيته السفلى عقاباً له. ولكنّ سنفوراً مرحاً أعاد لي البندقية، وعَدّه مجرد درس جديد.

إذاً: 1-لا تنسَ المتة أثناء الحراسة. 2-لا تنسَ أن تمدمد رجليك على الساتر أثناء النوم. 3-لا تنسَ أن السنفور مرح هو «فسفوس» أرض السنافر.

لم يكن إبريق المتة قد سخن بعد حين رنّ الهاتف، ولم أكن أتخيّل أنّ هذا الشيء الموضوع بقربي هو هاتف عدا عن أن يكون قادراً على الرنين، ولكن سبحان الله، لقد رن:

- محرس القيادة السنفور الجديد، مين معي؟

- سنفور جديد معك حرس الباب الرئيس، في حركة مشبوهة بالحرش، وبدنا نطلع مداهمة، جهز حالك.

قلتُ في نفسي: أكلنا خرا. لم أشرب المتة بعد، وها هم يريدون مداهمة حرش لا أول له ولا آخر.

-سنفور جديد، أسمعتني؟

-سمعتك. إيه.

ثلاث فرائص على الأقل ارتعدت من الخوف حين فهمت أن الأمر جدي، ولكن لماذا لم يأتني الأمر من الضابط المناوب؟ لماذا آخذ أوامري من حرس هو سنفور مثله مثلي، حسنٌ، هو سنفور متطوع، ولكني أعلى منه رتبة، ثم أنا لا أعرف كيف أطلق النار يا عزيزي، حتى في تمرين الرمي الوحيد الذي ساقونا إليه روكبت بارودتي.

- مِن مين الأوامر؟

-مِن السنفور الكبير.

- خليني إحكي مع السنفور الكبير وارجعلك.

-ماشي.

السنفور الضابط المناوب هو السنفور ضابط الأمن في الوقت نفسه، لا يمكن أن أدعه يشك لحظةً في أنني خائف أو متخاذل أو ما شابه، وإلا... بندقيتي السفلى.

- احترامي سيدي السنفور.

- خير.

- سيدي، قال بدنا نداهم الحرش؟

- مين قلك؟

- حرس الباب الرئيس سيدي.

- أوففففف، عم يمزحوا معك.

وقبل أن أطلب منه الصفح عنهم لمزاحهم الثقيل، الذي أدى إلى إيقاظ سيادته، كان قد «طبش» السماعة في وجهي. جلست مرتخي العضلات والفرائص، وشربت المتة بهدوء، دون أن أجرؤ على «بهدلة» حرس الباب الرئيس على مزاحه المسبّب للسلس البولي هذا، أو أن أضحك على نفسي التي شاهدت ارتباكها بوضوح؛ إنه ارتباك الأسئلة أمام الحقيقة، وليس خوفاً صرفاً، فتلك كانت لحظة حاكّة حقيقية، هل أَقتُل أم أُقتَل؟ هل أهرب؟ هل لدي استعداد للقتل حقاً؟ أأنا شجاع أم جبان؟ هل يحق لي أن أرتجف في لحظة كهذه؟ هل يحق لي ألا أرتجف؟ إلخ من الأسئلة الوجودية.

-5-

ذات مرة، قبل انتقالي إلى أرض السنافر، أطلقَتْ إحدى نقاط الحراسة النار في اتجاه الحرش، فانضمّ باقي السنافر الموجودين من حرس ومناوبين وذوي مبيت وغيرهم إليها. بدأ الاشتباك بعد منتصف

الليل. السيد العميد كان في منزله يومها، فهاتفوه، قال: سآتي فوراً. وقام بالتواصل مع سنافر آخرين أقوى من سنافر أرض السنافر ليقدموا يد المساعدة.

بدأ الاشتباك عند الواحدة فجراً، ووصل السنافر الأقوياء عند الثالثة والنصف. كان سنافر أرض السنافر قد أفرغوا معظم ذخيرتهم... ثمانية آلاف رصاصة أطلقها سنافر أرض السنافر على الحرش، وحين وصل السنافر الأقوياء وانتشروا في الحرش لم يكن ثمّة أثر لإصابة كائنٍ ما أو لوجود غريب، بل حتى لم يجدوا عبوات فارغة لرصاصات الأعداء.

انتهى تمشيط المنطقة القريبة من أرض السنافر في الحرش عند الخامسة صباحاً، وفي الخامسة والنصف وصل السيد العميد، لم يتأخّر لجبنه أو لعدم كفاءته، بل بسبب الازدحام المروري، هذا ما قاله لسنافره ولقائد السنافر الأقوياء الذي استغرب وجود ازدحام مروري بين الثانية والخامسة صباحاً. سأل السيد العميد سنافر أرض السنافر: «كم رصاصة قوصتوا يا عمي؟» فأجابه سنفور مطّلع: «تمنتالاف رصاصة سيدي». تغيرت ملامح السيد العميد، وخاصة حين قال له قائد السنافر الأقوياء: «تمنتالاف رصاصة، ولك حتى كلب مو قاتلين... سيدي العميد».

كان اشتباكاً بين سنافر أرض السنافر وبين الحرش نفسه لا أكثر. كلّفهم الخوف ثمانية آلاف رصاصة ليلتها. فيما كلّف قائدهم السيد العميد اتصالاً هاتفياً.

-6-

تبيّن لاحقاً أن السيد العميد أمر بعض السنافر الثقات بإطلاق النار على أيّ سنفور يشكّون فيه أثناء اشتباكٍ ما، وأنه يسعى إلى استشهاد

بعض سنافره لكي يرفع من شأنه أمام القيادة، حتى إنه أمر سنافره بالخروج من المهاجع إلى الخارج أثناء سقوط قذائف على أرض السنافر. إن هذا، بطبيعة الحال، وبالمنطق السطحي لدى أيّ عاقل، أمرٌ خالٍ من الحكمة، ولكننا اكتشفنا لاحقاً حكمة هذا القرار؛ إذ إن الكثير من السنافر تركوا أرض السنافر منشقّين عنها، منهم من ذهب إلى الأرض اليباب، ومنهم من ذهب إلى مدن التيه، وآخرون وصلوا إلى حقول الذهب. انشقاق معظم السنافر عن أرض السنافر «دون إحم أو دستور» وضع سيادته في موقف محرج أمام القيادة، فكان الحل الحكيم عند السيد العميد: استشهاد بعض السنافر المتبقين يخرجني من حرجي أمام القيادة. وفي النهاية مَن لسيادته إلا العائلة، ألسنا عائلته عمّي؟!

-7-

تمثال بابا سنفور وأنا وجهاً لوجه. أنظر حولي ليتأكّد لديّ ألا أحد يراني. أقبّله قبلة طويلة من الركبة، وهي أعلى ما يمكنني أن أصل إليه، وأقول في نفسي: «الركبة اللي ما بتقدر عليها، بوسها وادعي عليها بالكسر». ما إن أرفع شفاهي عن الركبة حتى تنفجر قذيفة في المكان نفسه تماماً، فأستيقظ.

الساعة السادسة صباحاً. برد الربيع. شمس آذار ليست مصدراً فعلياً للحرارة، ليست أكثر من مصدر إضاءة. غربان وسنونوات تطوف حول التمثال. لا يتحرك، لا يشعر بالبرد أو الدهشة، جامد تماماً كما لو أنه تمثال. أسمع صوت تلقيم بندقية. أجلس على كرسيي وأراقب الطيور: غراب يقف على رأس التمثال، وآخر على يده، يطلق أحدهم النار على

الغربان، يرفرف الغراب الواقف على الرأس ليرتفع قليلاً ويطوف حول التمثال مرتين، ثم يسلح على رأس بابا سنفور ملوثاً قبعته ثم وجهه، ويبتعد وهو ينعق، تنعق بعده غربان أخرى وكأنها توافقه الرأي، ويضجّ صوت السنونو، وأدّعي أني سمعت ضحكات سنفورية مكتومة أيضاً.

يجمعنا سنفور ضابط، ويسأل عن سبب إطلاق النار. وما إن يعرف القصة حتى يحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه ويصرخ زاعقاً بالسنفور الناري الأحمق (في الحقيقة السنفور الضابط لم يصف السنفور الناري بالأحمق، بل بالجحش الكر الذي لا يفهم، وأَقسمَ أن مخ الغراب أكبر من مخ السنفور الناري، ولكن هذا لم يثبت لنا بالتشريح)، ويطرطشنا لعاب السنفور الضابط وهو يشرح لنا كم نحن حمير حين نفكر في إطلاق النار على غراب لنبعده عن تمثال بابا سنفور، في حين علينا أن نفكر في الكارثة التي ستقع لو أن الرصاصة أصابت التمثال بدل الغراب أو السنونو. وحين يخبره سنفور غيور بأن الغربان والسنونوات تسلح دائماً فوق التمثال، يؤكد السنفور الضابط أن أمر الطيور متروك للمخابرات الجوية، وأن لا علاقة لنا نحن، كل ما يمكننا فعله هو تسجيل أوصاف الطيور التي تسيء للتماثيل كي نقدّمها للمخابرات الجوية عند الضرورة، أما الطيور التي تفلت بريشها فحسابها عند الله يوم القيامة.

أعود إلى المحرس، ألملم أغراضي، أسير في اتجاه المهجع، أتجاوز دبابتين للفرقة الرابعة سنافر مظليين متمركزتين في أرض السنافر (اكتشفتُ لاحقاً أن على أرض السنافر خليطاً من الوحدات، بدءاً من مجاميع سنفور شبيح، وليس انتهاء بعناصر للمخابرات الجوية، للأسف لم يهتموا أبداً لقضية الطيور) تركتُ الدبابتين، وانحرفتُ في

اتجاه الدرج الهابط إلى المهاجع. دخلتُ المهجع. أخلع عني اللباس العسكري، وأرتدي ثياباً مدنية، وأنا أفكر في الحلم الذي حلمت به. أقول لنفسي: القذيفة أصابت الركبة، ولكنّها كانت قريبة جداً من إصابة شفتيّ أيضاً.

أخرج من أرض السنافر إلى جحيم عاصمة سنفوريا في إجازة ليوم كامل، أشتاق أثناءه إلى نعيب الغربان وصأصأة السنونو.

«له يا عبد»

أن تكون مؤمناً بالله أو منكراً لوجوده لا فرق. الإيمان والإنكار وجهان لعملة واحدة: القلق.

أن تكون مؤمناً بالله أو منكراً لوجوده لا فرق. الإيمان والإنكار وجهان لعملة واحدة: القلق.

أن تكون مؤمناً بالله أو منكراً لوجوده لا فرق...

ليلاً، بعد تلات سنوات من الخدمة العسكرية الإلزامية جداً، الهوا بارد، الكرسي بشع، البارودة والجعبة عالأرض، البخار عم يطلَع من بريق المتة، والجملة السابقة متل المرجوحة براسي:

أن تكون مؤمناً بالله أو منكراً لوجوده لا فرق. الإيمان والإنكار وجهان لعملة واحدة: القلق.

ركن الدين، الكيكية ألف وتسعمية وأربعة وتسعين، مدرسة محمد أحمد ناصيف، درس العسكرية النظري عن البندقية الآلية كلاشنكوف: المدى المجدي 400 متر؛ المدى الأقصى 900 متر؛ وللمظليين 500 متر.

السويداء، الكورنيش الشرقي، ألف وتسعمية وأربعة وتسعين، أنا

وسامر ابن خالتي ماشيين من بيت جدي بحي النهضة لبيت خالتي بحي القصور.

- كيف يعني المدى المجدي 400م؟

- يعني إذا الرصاصة صابتك بتروحك.

- ليش إذا 900 ما بتروحك؟!

-لأ، عالتسعمية بتعمللها بإيدك هيك بتقع قدامك مثل الذبانة.

بالصف السابع كنت لابس بدلة فتوة؛ لباس عسكري يعني، مش بس وقت درس العسكرية، بدرس الرياضيات كمان، وبدرس العلوم، وبدرس الموسيقا... بكل الدروس، بس ما كان في معي كلاشنكوف، لإن الدرس نظري، وظلو نظري.

قطعة عسكرية ما على حفاف دمشق الألفين وتلطعش، ماني لابس عسكري مع إني عسكري، بس معي كلاشنكوف، وجعبة، ومخزنين ذخيرة، وخوذة، ومتة، وكاسة متة، وبريق عم يطلع منو بخار، ومرجوحة براسي.

- لأ، كلمات سامر عن المدى المجدي والأقصى براسي.

- حاجة عاد! براسي ما في غير جملة: إيمتى رح تخلص هالليلة اللعينة.

- براسي في صفيرة، المشكلة مش براسي المشكلة بأذنيي، كل شوي بسمع صوت اشتباك عند تروبيكانا أو سيرونيكس، وبسمع صوت مقذوفات الرصاص الجاي من هنيك وهي عم تحف بالشجر يلي حوليي.

- روقوا يا شباب الله لا يدب الخلاف بيني وبيني وبيني وبيني وبيني.

مجموعة مني في جسد واحد، أيُّهُم أنا الذي عاش ليروي لا أعرف بعد؟ كل واحد مني يتصرف بما يراه مناسباً، وأحياناً بما يغضب الآخرين فيّ.

صوت إطلاق نارٍ كثيف وقريب، كلاشينات بالأول، بعدين ببلش الصوت يتخن متل صوت الصبي اللي عم يبلغ، بي كي سي ودوشكا، ثم م/ ط، ثم هاون، ثم مدفعية، ثم سلطة من الذخيرة المفرومة قطعاً صغيرة على يد الشيف.

بارودتي ملقوحة فوق الجعبة عالأرض، وصينية المتة عالساتر، هيك بتضل كاسة المتة قريبة من إيدي.

أحدي يقرّر أنه أَزِفَ وقت سيجارة الحشيش.

خمسة مجندين في غرفة متحلّقين حول آلة تشبه خرازة الورق، ولكنّ آلتنا اسمها: الدكاكة. ما الذي تدكه دكاكتنا؟ إنها تدك سيجارة من الطول الملكي بالتبغ المنضب، تبغ منضب بالحشيش، كنا -نحن الخمسة- قد أجمعنا على أن ذلك أفضل من دكّ الناس والأسواق والمقاهي والمنازل بالقذائف. لم نبح بذلك حتى لأنفسنا، لكن... لماذا ندك التبغ المنضب إذاً؟!

أحدي يقرّر أنه أَزِفَ وقت سيجارة الحشيش. أنا الآخرون أنظرون إليه بهدوء، إنه دوره في قيادتنا.

كاسة متة وليل بارد والضو البرتقالي لوشيعة المدفئة الكهربائية وسيجارة حشيش. هذا خليط متفجّر بلا شك، إنه الحنين يُفَتّقني... إلى ماذا ولمن؟ الإجابة غير واضحة.

لا يزال صوت الاشتباك مرتفعاً، معركة حامية الوطيس للموت، للموت فقط. لا أحد يتقدم ويحتل مواقع الآخر سوى الموت.

ماذا لو وقفنا وجهاً لوجه؟ أشهر بمبيجة المتة في وجهه أم سبطانة البندقية عيار جف 6.67؟

– انتظرْ قليلاً، أريد أن أعقد شواطة البسطار لأموت بأناقة، أو أقتلك بأناقة.

قلت: سأقول له ذلك. لكني لم أتذكر أين يركَّب المخزن.

أَنظر إلي وأقول لي: يا عيني عاللعب الأدبي والتمعن الوجودي. حبي السبطانة والبمبيجة قدام الموت مثل بعظ.

فألكزني لأصمت وأتركني في لعبي وتمعني. زدت قليلاً من السكر لقرعة المتة. أشعلتُ سيجارة جديدة.

قيل: حين تسمع صوت طنينٍ فلديك فسحة أربع ثوانٍ لتنبطح خلف الساتر وإلا قلبتك القذيفة رأساً على عقب، وربما بلا: رأساً على عقب. كنت أود الانبطاح خلفه، ولكن ماذا لو سقطت القذيفة خلف الساتر؟ ماذا لو أصابتني تماماً في الجمجمة؟ فلا أحد يعرف من أيّ اتجاه قد تأتي. والأنكى أن تستقر في جمجمتي ولا تنفجر. القذيفة لم تنفجر وأنا لم أمت... يا إلهي!! سيصبح شكل رأسي غريباً تماماً. وإذا تمثّلت جمجمتي قذيفتها فكستها جلداً وشَعراً، عندها سيصبح شكلي أخرقَ بكل معنى الكلمة. بكل معنى الكلمة؟! كيف يعني؟ الموت يعني أن تموت أليس كذلك؟ أليس هذا هو كل معنى كلمة موت مثلاً؟ هل يمكن أن تكون الكلمة إلا بكامل معناها؟!

–المدى المجدي مدىً قاتل، المدى الأقصى مدىً غير مجدٍ.

كلمات سامر، الإيمان والإنكار، صوت الاشتباك، الليلة اللعينة، الحنين الراكض في خلاياي، بلّش راسي ينتفخ متل بالون... متل جثة إذا أخدنا الروائح بعين الاعتبار.

أسحب مجة من سيجارة الحشيش كعلاج لكل ذلك:

– الرصاص اللي عم يحف بالشجر حوليي من تبع المجدي ولا من تبع الأقصى؟

أنظرُ إليَّ قلقاً. أنظرُ إليّ مشجعاً. أنظرُ إليّ مشدوهاً. أنظر إلي غير مبالٍ. أنظر إلي مرعوباً، فأبادلني النظرة مبتسماً، وأنهض عن الكرسي. قرارات المحشش قد تخلو من الحكمة أحياناً، بعرف. أضع كاسة المتة بهدوء على الصينية، بزيح الصينية على طرف الساتر، وببرود العالِم يلي عم يعمل تجربة علمية بطّلّع باتجاه إطلاق النار، وبشنّف سمعي، صوت حفيف الرصاص فوقي عاليسار. أضع قدمي على أكياس الساتر المحشوة رملاً، وأدفع نفسي إلى الأعلى. أقف على أكياس الساتر. أفرد ذراعَي كلاعب سيرك يسير على حبل، وأبحلق عابساً في العتمة هناك. الآن هنا سأعرف إن كنت أستطيع أن أضرب الرصاصة بيدي فتسقط أمامي كالذبابة.

– طيب، برافو (صوت تصفيق وهتافات لروعة الأداء) يالله نزيل.

– طلع المدى أقصى جداً.

– ما وصلت ولا وحدة؟

– مبلى، بس مش عبيصيبوني.

أسير قليلاً على الساتر إلى اليسار. أقفز. أفتح أزرار القميص لأن بلكي عبيصيبوني بس مش عبحس، يعني ممكن يكون المدى أقصى لهالدرجة، بحيث إنو حتى القميص يصير قتّالة ذبان، أقفز مع فتح وضم الأصابع، لا شيء، ما بدهن يصيبوني... إيه لطيزي.

أقفز خلف الساتر من جديد، وأعود إلى الكرسي البلاستيكي البشع، أجدني منتظرني هناك فاغر الفاه.

-ليش فاغر الفاه؟ ما صابوني.

-لا ولا شي، عادي يطلع الواحد على الساتر ويقفز متل الفيل الراقص بوجه رصاص مش معروف وجهو من قفاه. بس ما يفغر له الفاه هو ترتيب الغراض بالمكان.

صورة فوتوغرافية: ساتر من أكياس الرمل بارتفاع 80 سم تقريباً، خلفه على بعد خطوتين جدار بارتفاع 250 سم تقريباً، وأمامه أرض واسعة بمساحة هكتار ربّما. الهكتار مسيج وعليه محارس للحراسة، الساتر هو إحدى هذه النقاط. بين الساتر والجدار الذي خلفه كرسي بلاستيكي بشع، وشخص، الشخص جالس على الكرسي، أمامه الساتر الذي يستخدمه الشخص كطاولة يضع عليها صينية المتة، وخلفه الجدار الذي يشكل حماية للشخص من جهة، ومصدراً للكهرباء التي تشغل سخانة كهربا لتسخين المتة ولشوية دفا من جهة تانية. جنب الكرسي عاليمين سخانة الكهربا بوشيعتها البرتقالية، جنب الكرسي عاليسار، ولكن بعيداً عن متناول يد الشخص، في بارودة وجعبة وفوقهن خوذة.

ما في شي يُفغَر له الفاه طبعاً، كانت شوية مبالغة مو أكتر، بس كل العدة العسكرية بعيدة، وكل عدة المتة قريبة، أحدني يسألني: بوضع متل هالوضع مش يمكن لازم تكون البارودة هي الأقرب؟ تخيل يهجموا علينا من القابون مثلاً...

ماذا لو وقفنا وجهاً لوجه؟ أشهر بمبيجة المتة في وجهه أم سبطانة البندقية عيار جف 6.67؟

- انتظرْ قليلاً، أريد أن أعقد شواطة البسطار لأموت بأناقة، أو أقتلك بأناقة.

قلت: لن أقول له ذلك، سأقتله، سيقتلني، سيعيش من يطلق النار

أولاً... ماذا لو وقفنا وجهاً لوجه، كيف أقنعه بأني لا أحب بشار الأسد، وأني مع الثورة ربما أكثر منه؟

كيف سيقنعني بأنّه مع الثورة، بأنه لا يقتل ليبيع السكر بأضعاف ثمنه في القابون أو غيرها من المناطق المحاصرة؟

هَي هية الأسئلة الحقيقية أمام القتل؟! مين سبق الثاني بمعارضة نظام الأسد؟! مين بحب سوريا أكثر؟ ليش بعدك مع الجيش، أو ليش صرت ضد الجيش؟ سأقول أنا ضد السلاح لأني مع الحياة، والحياة الجميلة الحرة. سيقول: وأنا مع السلاح لأؤمّن هالحياة الجميلة الحرة. من منا مع الحياة أكثر من الآخر؟ من منا على حق؟ من منا...؟

– تفاهات. السؤال الوحيد أمام القتل هو: ليش بدك تقتلني.

– مش صحيح. السؤال الوحيد أمام القتل هو: ليش بدي إقتلك.

– عند القتل تتوقف الأسئلة وتتحرك السُّبابات.

– خراي عليك وعالقتل وعالأسئلة وعالسبابات، غلى بريق المتة، أوقف الأسئلة وحرك سبابتك. شيل الابريق عن السخانة.

نظرتُ إليّ بازدراء، تجاهلتُني، لملمتُ أغراضي، وسلّمتُ نوبة الحرس للشخص الذي بعدي.

للمرة المية يمكن نقزت لما شفت زميل قاعد على برج مدفع دبابة ت 72 متمركزة، متموقعة، متمترسة، كجلمود صخر قدام مهجع المجندين. في منها تلاتة هون، بتروح مشاوير على داريا والمعضمية وبترجعلنا، مهمتها بس داريا والمعضمية. ابتسمت بكل أدب للزميل، ونزلت عالمهجع.

طبعاً بكل أدب، الزميل معو دبابة، أني معي كلاشنكوف. أقل شي كون مؤدب لما مر جنبو... أو تحتو بالأصح.

المهجع، صورة فوتوغرافية: جدران رمادية، سقف أبيض، ألوان قبيحة تشبه التصاميم ثلاثية الأبعاد التي يقوم بها المبتدئون. في الجدار الأوسط نوافذ تطل على أقدام المارة من الزملاء. على الجدار الأيسر صورة لحافظ الأسد بزيّه العسكري، وفوقها الصورة الرسمية لبشار الأسد ببذلته الزرقاء، مكتوب أسفل الصورة: بشار الأسد، ثم تحت الاسم وبخط أصغر: رئيس الجمهورية العربية السورية. أرضيّة مبلّطة ببلاطات مربعة كأي منزل متوسط الحال. شوفاج لا يعمل، لا لعطل فيه؛ بل لأن الأوامر تقضي بذلك. خزانة من الحديد الصافي مدهونة بالرمادي والأزرق، بابها لا يمكن إغلاقه. سرير عسكري يعلوه فراش مدني ملفوف بشرشف أبيض. كنبة ثلاثية وكنبتان مفردتان. لكل من أشكال الأثاث هذه تفصيلة مختلفة وتنجيد مختلف وحالة نفسية مختلفة. كرسيان بلاستيكيان بشعان. طاولة خشبية منخفضة، عليها الدكاكة. أما على الكنبات والكراسي فتوزع أربعة زملاء من خادمي الوطن بشكل إلزامي، رتبهم العسكرية مختلفة نعم، ولكنها من الرتب الدنيا في الجيش عموماً: مساعد مجند، ورقيبان مجندان، ومجند مجند، وانضم إليهم الآن المساعد المجند حضرتنا.

كان المساعد عبد مؤمناً متديناً، يحب الله ورسوله بطاعة تامة، بس ما كان متشدد أبداً. عندو قدرة عظيمة على قبول الآخر وعلى دك الحشيش. أما الرقيب مصطفى فكان يقول ما في الله، وبالتالي ما في رسول، بس في أشخاص عظماء ومحمد واحد منهن. مع هيك كان مصطفى حافظ كتب الفقه والسيرة النبوية والقرآن وتاريخ الإسلام يمكن حرف حرف، سيجارة سيجارة، سحبة سحبة.

لما فتت عالغرفة كان عبد عم يحط كاسة المتة عالطاولة، وجهو أحمر وصوتو عالي:

- بكفي إنو منع وأد البنات مثلاً.

- منع وأد البنات عندو بمكة. ببلاد الشام ما كان في وأد يا عبد، بعدين يا زلمة حدا بيتجوز بنت عمرها تسع سنين؟ منطقي هاد برأيك؟ إنت إنت بتقبل تتجوز بنت عمرها تسع سنين؟! يمكنلك منع وأد البنات مشان يتجوزهن.

وقف عبد فجأة وصرخ:

- أخي، الرسول صرلو ألف سنة ميت وحضرتك نازل نتف فيه كأنك كنت معو، إذا كنت زلمة حكي عن هاد طيب.

وأشار عبد إلى نقطة وسط بين صورتَي حافظ الأسد وبشار الأسد الملصقتين على الحائط. فانفجر مصطفى ضاحكاً، وراحت الكلمات تنبع من فمه ممزوجة بالدموع:

- له يا عبد، شو عاملّك أنا؟!!

ضحكنا جميعاً حتى عبد، الذي طلب تغيير الموضوع وعدم فتحه مجدداً. قال بصوت هادئ حكيم إنه، مثل مصطفى، لم يكن مع الرسول يوماً، لكنه يؤمن به، وهو مثل مصطفى... ونظر إلى الصورتين باسماً.

داخل الداخل

المقهورون الجائعون الذاوون بين «البَخْشَة» وملفات التحقيق، المحاذون للموت أحياناً، الداخلون فيه دون أن يخرجوا منه أحياناً أخرى... ما لها اللغة عاجزة.. آخ، الرائحة. اللون الأصفر. شهقات ما قبل الموت. الضحكة بعد تحقيق دموي... وكل ما هو غير قابل للانتقال عبر الكلمة. «والله لا يجربو لحدا».

لن أتحدث عن الجلد المشدود على الأقفاص الصدرية وعظام الحوض حتى تكاد ترى البنكرياس والشريان الأبهر بوضوح، ولا عن أحلام السكّر والوجوه الضامرة المعكوسة في (جاط) الشاي.

لن أتحدث عن اليأس، هناك حيث لا علم ولا خبر، ولا قناة الدنيا حتى. تخيل (وتخيلي يا حسنائي) أن تفقد السيطرة على مستقبلك الذي كنت ترسمه بحبات العرق أو «الكولكة» أو كليهما. كيف تشعر الآن؟! كيف تشعر حين لا تعرف ما الذي سيحدث لك؟ هل جربت أن تُنهكك السباحة؟ تكاد تغرق، تحاول التنفس، تشعر بالموت وهو يقترب، وأنت تدفعه بيأس. ما من منقذ، لا أحد من حولك، فقط أنت والماء والتعب... والموت يقترب... فقط أغمض عينيك قليلاً وتخيل... هل شعرت بشيء من اليأس؟

لذلك لن أتحدث عن الرقم 84 على 9 في فرع فلسطين. لن أتحدث عن آلاف الأرقام التي تنتظر أن يُنادى على اسمها بعد شهور من النسيان، ولو كان هذا النداء سيقودها إلى الإعدام.

وأكثر ما لا أودّ الحديث عنه هو العجز. صراخ طفل لم يتجاوز الثالثة عشرة في «كاريدورات» فرع المنطقة. ما الذي يمكنك أن تفعله؟ يدخل الطفل والدم يسيل من رأسه، ويُؤمَر بالوقوف حتى إشعار آخر، وأنا أرصده بعيوني وقلبي الذي يكاد ينفجر. ما الذي يمكنني أن أقدمه له؟ نصف رغيف هي حصتي وحصته من الطعام. من أين لي بنصف رغيف آخر؟ طفل لم تنبت عانته بعد وعانتي التي يقضمها القمل لا معنى لها هنا يا عزيزي. الفرق الوحيد بيني وبين الجدار أن الطفل يستطيع أن يستند عليه.. لا علي.

جثة مرمية في المرحاض، لا أستطيع أن أحييها. كل ما أريده هو أن أعرف اسم صاحبها. أحملها. أعبر «النفق» وثلاثاً وعشرين درجة ثم الشبك و«كاريدور» يقود إلى الباب الداخلي للفرع، حيث تفتح سيارة كبيرة فمها الخلفي لتلقف الموتى، سيارة كبيرة. أستطيع حمل الجثة رغم ثقلها وقرقعة عظامي، لكني لن أستطيع أن أعرف اسم صاحبها... هل لديكم أي تعريف آخر للعجز؟

يقولون لك: مات تحت التعذيب. لا تصدق. ليس هناك من يموت تحت التعذيب. محظوظ من يموت تحت التعذيب. هناك تموت بالتعذيب وليس تحته، تعذب حتى الموت. أن تموت تحت التعذيب يعني أن يزيد «فولتاج» الصعقة الكهربائية قليلاً فيوقِف قلبك. أن تنحرف العصا قليلاً فتهرس بصلتك السيسائية. ولكن لا، هناك تموت بهدوء. ترى الموت يأتي إليك وتعيشه لحظة بلحظة. أنت تموت وأنا

أراك تلفظ أنفاسك الأخيرة، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا أن أتوسّد ركبتيك لأنام، فجثتك لن تُسحب من المهجع إلى المرحاض قبل طلوع الشمس... لذلك لن أتحدث عن الموت تحت التعذيب.

داخل الداخل أقلّ ما يؤلم فيه هو التعذيب، أقل ما يؤلم فيه هو ألا تجد مكاناً لإصبع قدمك الصغير، أقل ما يؤلم فيه هو أن تظل مستيقظاً لأيام واقفاً على قدم واحدة فيذوب الخط الفاصل بين العقل والجنون.

في إحدى أغنياته يحاول سميح شقير مواساة الغائبين راجياً أن «تحاذي الموت تدخلّو وتطلع منو أجمل حي»، وأقول له: شكراً لمواساتك، ولكنها لا تنفع... صدقني.

قبل عام خرجت من المعتقل.

قبل خمسة شهور فقط بدأت الكوابيس تجتاحني.

قبل قليل كنت أبكي.

ستظل آثار الجرب محفورة في جلدي عاماً آخر كما قال لي أحد المجربين.

وحتى إشعار آخر أنتظر باص يارا صبري عند كل المحطات، مردداً في سري: يا حرية اغمرينا.

«كاريدور» البطاطا ورغيف الخبز

نيسان 2010: عمري 28 سنة. أحاول الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية كي أنقذ ما تبقى من العمر، وربما يمكنني القول: كان لدي طموح أيضاً.

دورة الأغرار في كلية المشاة. احترامي سيدي النقيب. احترامي سيدي العقيد. احترامي سيدي العميد. احترامي سيدي الشجرة. حاضر سيدي، وتكتيكات معقدة لتهريب المتة والسكر ووشائع التسخين... يحتاج الأمر إلى قليل من الموهبة أيضاً.

أيلول 2010: الفرز، الجندي المناسب في المكان المناسب. كلنا مناسبون، وكل الأماكن مناسبة. إلى أين تم فرزك؟ إلى مكان مناسب، جيد، وأنا أيضاً. بعد ستة شهور من التأهيل العسكري الجدي أصبحنا نعرف أنّ ما نسميه «الجيش» لم يكن «الجيش»؛ بل كان «الجيش العربي السوري». بعد ستة شهور من التأهيل العسكري الجدي حتى صديقي دلشاد بات يعرّف نفسه على أنه مساعد في «الجيش **العربي** السوري».

آذار 2011: وبينما كنت في المكان المناسب أغبّ كمية مناسبة من المتة، غافلتنا الحتمية التاريخية. الحتمية التاريخية أنانيّة إلى هذه

الدرجة. طيب يا حتمية، أولاً الحمد لله على السلامة، اشتقنالك، ثانياً شكراً لكِ... في ذلك الوقت على الأقل.

أيار 2013: عمري 31 سنة. ثلاثة شبان مناسبين، وكان لدينا طموح ذات مرة، طاولة، ثلاث زجاجات بيرة. الساعة الحادية عشرة صباحاً. في الشارع أغانٍ تمجّد سيدنا بشار عليه السلام، وتصرّ على أنها: صغيرة يا كبير، وبضع انفجارات، والكثير من العجز والصمت والتلفع بالذات.

كنا ثلاثة من المحتفظ بهم في صفوف «الجيش العربي السوري»، سنة وسبعة شهور من عمرنا البشري القصير تم الاحتفاظ بها في سجلات «الجيش العربي السوري» زيادة على السنة ونصف السنة الإلزامية. كنا ثلاثة، ومازال بعض الرمق يسري فينا عندما رنّ هاتفي النقال:

– ألو... احترامي سيدي الرائد.. حالاً سيدي الرائد... حاضر سيدي الرائد.

أكملت شرب البيرة على مهل، وانطلقت بحسب أوامر سيدي الرائد... طب غم وإذا أنا في فرع المنطقة (الريف). كانت التهمة في البداية تجسّس، ثم التحريض على النظام السياسي، ثم... كلنا مناسبون وكل التهم مناسبة.

لسبب ما نقلت إلى فرع المنطقة (المدينة)، ثم من جديد إلى فرع المنطقة (الريف)، لم أكن خائفاً طبعاً، كنت خائفاً قليلاً، أجل كنت خائفاً جداً، ولم يساعدني عناصر الفرع بقليل من التشجيع، رغم أننا جميعاً تحت سقف «الجيش العربي السوري». كيف يمكنني أن أقنعهم بأن الضرب والشبح ومسح الأحذية بالوجوه لا يشجع الإنسان؟

- يلي بيطلع اسمو بقول حاضر.

- حاضر.

المهجع رقم ثلاثة، فرع المنطقة (الريف) أيار 2013، عمري 31 سنة، سبق أن قرأت تشيخوف وسوفوكليس وبيكت وغيرهم، وفي العشرين سنتمتراً بعدي ثمة من قرأ قانون الطابو، ويحفظ عن ظهر قلب كيف تتم معاملات الزواج وإخراج القيد وحتى جواز السفر، لكل عشرين سنتمتراً قصة وخبرات وحياة تتجاوز تشيخوف وسوفوكليس وبيكت بكثير أحياناً. لم نكن نحن نحن. كان كل واحد فينا مجموعة من الأرجل والأصابع والبطون والمؤخرات والرؤوس. لا يمكنك أن تعرف أين تبدأ أنت بالضبط وأين تنتهي بالضبط... لكنْ. كلنا مناسبون، وكل الأماكن مناسبة.

ثمة فسحة في ذلك الضيق يخلفها موسى الصمادي؛ طفل لم يتجاوز الثالثة عشرة، من درعا، مدينة الحتمية التاريخية، ولكنه كان يقيم مع أهله في مخيم اليرموك. عينان سوداوان واسعتان كشخصيات الرسوم المتحركة، جسده نحيل جداً، أصفر ومليء بالقروح، يبتسم بين الفينة والفينة، لم يكن ذلك هو اليوم الأول لموسى؛ إنه هنا منذ أربعة شهور ونصف.

كان يضحك، يبكي، ويسأل ببراءة حقيقية، باستغراب مستفز: ليش عم يعملوا فينا هيك؟ كانوا مناح معي بالأول. أبو فراس كان يقعدني برا بالكريدور ويعطيني بطاطاية ورغيف خبز كل ما يكون مناوب، ليش هيك صاروا؟ بس بدي أعرف، إذا ساويتلهن شي والله بعتذر.

- شو تهمتك موسى؟

- إنو عم طعمي الجيش الحر.

- الله يصلحك، هي عملة بتعملها؟

- الله يصلحك إنت، أنا خرج طعمي الجيش الحر؟!

تذكرت تهمة أُمِرت أن أعترف بها في ثاني تحقيق:

- إنت قتلت البوطي ولك.

- !!!!!!!!!!

حسناً، ربما أكون قد قتلته، وهل أنا أدرى من سيادته؟

موسى الصمادي قياس قدمه لا يتجاوز 38، جسد نحيل أصفر مليء بالقروح، ثمة فسحة يتركها لنا دائماً لأن الأوامر تقضي بأن يظل واقفاً إن لم يكن مشبوحاً على أحد قضبان المهجع، وكان يترك فسحة أكبر كل ليلة حين يقاد إلى كريدور البطاطا ورغيف الخبز ليعذب حتى الموت... لكنه لم يمت، مئة وخمس وخمسون جلدة على رأسه في عشر ليالٍ ولم يمت. استخدموا رأسه لليّ باب مهجعنا ولم يمت. ضُرب ورُكل وديس عليه وشُبح وحُرم من الطعام وغُطِّس في «البلوّ» وخُلع كتفاه وشُقت شفته على الكرسي الألماني، ولم يمت.

المهجع رقم ثلاثة، فرع المنطقة (الريف) أيار 2013. موسى الصمادي عمره 13 سنة. لم يسبق أن قرأ تشيخوف، لم يُعطَ الوقت الكافي ليفعل... لا يا سيدي، لسنا كلنا مناسبين، ولا كل الأماكن مناسبة، لا أحد مناسب لهذا المكان... حتى أبو فراس.

آب 2013: القضاء العسكري، مرت ثلاثة شهور على اعتقالي، قضيت منها نحو أربعين يوماً مع موسى، نُقلت بعدها إلى فرع آخر، ومنه إلى القضاء العسكري. أعرف هذا الوجه، لكن أين رأيته؟ في فرع المنطقة (الريف)، عرفني هو الآخر، تعانقنا، أول سؤال خطر لي:

– طمني عن موسى الصمادي؟

– نقلوه عالفرع 248.

الفرع 248، فرع تحقيق عسكري أيضاً. موسى أتم عامه الثالث عشر في فرع المنطقة، فرع تحقيق عسكري آخر، وموسى لا يتجاوز مقاس قدمه الـ38، وأنا في القضاء العسكري، لم أتم عامي الحادي والثلاثين بعد.

أنا أبتسم في وجه سيدي الرائد من جديد، وموسى الصمادي يبتسم ويبكي ويسأل في أحد فروع التحقيق العسكري، وهو لم يؤدِّ الخدمة الإلزامية في «الجيش العربي السوري» بعد لينقذ ما تبقى من العمر... ولست متأكداً بشأن طموحه.

طرائف لا تحتاج طبيباً نفسياً

- قطعة شوكولا محشوّة بالفستق والكاراميل من ماركة مشهورة (لن أسميها) تطير فوق طاولة. على الطاولة علبة حليب مكثّف من ماركة مشهورة (لن أسميها). يتفتّح غلاف قطعة الشوكولا الطائرة في الهواء ببطء شديد، ويظهر جزء من جسدها البني الطاهر. لا أعرف كيف عرفتُ مسبقاً أن قطعة الشوكولا ستغطس في الحليب المكثف، لتطير من جديد إلى فمي المفتوح عند نهاية الطاولة.

تكرر هذا أكثر من مرة خلال خمسة وتسعين يوماً بدقة تكاد تكون مدهشة، ولم تصل قطعة الشوكولا إلى فمي ولا مرة. جاء دائماً صورةً ثابتة رغم الحركة فيه. غريب أليس كذلك؟! المنامات غريبة دائماً.

- أركضُ في نفق جدرانه ترابية بلون الخراء، نفق وأمعاء غليظة أو دقيقة، من يعرف؟! لا رائحة، لا ضوء في نهايته. أركض خائفاً، وتركض خلفي ثلاث قطط سوداء متوحشة، سوداء تماماً، الخوف وحده ما يدفعني للركض، ويمنعني من التفكير إن كنت قادراً على «لبطها» ثلاثتها بركلة واحدة. كان الخوف هو ما يخيفني، غريب أيضاً!! أركض وأتلفت، القطط تقترب وتتقافز على جدار النفق/

الأمعاء، الخوف يدفعني لأن أضرط، فتخرج من مؤخرتي ضرطةٌ نارية تصيب قطةً باتت خلفي تماماً. تتحول القطة فجأة إلى خفاش معلق في سقف النفق/ الأمعاء، وكأننا أنا والقطط لعبة من ألعاب الفيديو. أبتسم، أضرط شعلة ثانية، تحرق القطة الثانية، وتعلقها خفاشاً ثانياً في السقف، وثالثة تحرق الثالثة وتعلقها. أفرح، أشعر ببعض الاسترخاء، أستمر في الركض، أركض وأركض لفترة طويلة جداً، لكن لا يظهر نور في آخر النفق/ الأمعاء.

عندما استيقظت، سألت الشيخ، المهندس سابقاً، «أبو عبادة»، أن يفسر لي المنام، كلنا -المُصطَافين في المهجع رقم تسعة في فرع فلسطين- كنا نتقاطر إلى أبي عبادة ليفسر لنا أشياء مختلفة، أو لنتسلى بتفسيراته لأشيائنا المختلفة، ولاسيما المنامات. قال لي المهندس الشيخ ببساطة: بضرطة بلا ضرطة، فقت مِتْداييئ فقت مرتاح، إذا شفت قطة سودا معناتو منامك فسد.

- منام جنسي كان الأول والأخير في زحمة الموت تلك. هل تعتقدون أنني سأعرضه عليكم حقاً؟! (سمايلي فيس)

- أنزل الدرج والخوف يشلني، باللباس الميداني الكامل. على كتف «الفيلد» العسكري جهاز لا سلكي، وثمة مكان للاسلكي آخر عند الركبة، أقف في منتصف الدرج حين أرى من شق الباب تجمعاً كبيراً لشباب باللباس المدني في ساحة خارج المبنى. وثمة جنود في حركة دائبة ينظمون هؤلاء الشباب. أدور وأصعد الدرج هارباً، لكن رأساً -ميدانياً هو الآخر- يطل من الباب ويصرخ بي:

- جباعي ولك، وين طالع؟

– سيدي بدي جيب اللاسلكي التاني، نسيتو فوق.

– إيه انزيل انزيل، ما حدا رح يحاسبك عليه.

قال الرأس ذلك واختفى من شق الباب، ورغم أن هذا ما قاله فقط، لكنني كنت أعرف، دون أن أعرف، أنه يقصد: «لما تروح تقاتل ما حدا رح يحاسبك على جهاز لا سلكي ضايع». ورغم أن الرأس اختفى، ولم أعد أراه لا هو ولا الساحة التي يتجمع فيها الشباب، كنت أرى توزيع المجموعات لتقاد إلى المعركة.

استغللت اختفاء الرأس، وركضت الدرج صعوداً حتى وصلت إلى السطح، هو سطح غرفة عادية كالتي يمكن رؤيتها في أي قطعة عسكرية، ولكنه، في الوقت نفسه، سطح «التكية السليمانية» بقبابها التي تشبه جرّات كبيرة مقلوبة؛ بل إن بعض الأشجار تطل على السطح تماماً كما أشجار التكية.

اختبأتُ خلف قبة. تمتد أمامي قباب أخرى، ثم طنف السطح، لتأتي بعده أرض يباب صفراء اللون، كانت تخرج إليها أرتال شديدة التنظيم من الأطفال بلباس «الطلائع» (يشبهون في سيرهم سير الأطفال في فيلم The Wall)، كانوا يدخلون من الباب الذي أطل منه الرأس شباباً بلباس مدني، يمرون تحت السطح الذي أنا عليه، ليخرجوا من الجهة الأخرى جيشاً من الأطفال. كان المنظر بالضبط إذا افترضنا أنه مرسوم على هذه الشاشة: أنا على السطح خلف قبة في أسفل الشاشة، يمتد السطح إلى الأعلى حتى ثلثها تقريباً، هناك، عند نهاية السطح، على الجانب الأيمن، يجلس جمل مسلوخ الجلد بالكامل، لونه زهري لامع مع بعض الحمرة الخفيفة، يجلس على أربعته ويجتر شيئاً ما بهدوء، وثمة لا مبالاة مؤلمة في عيونه. بعد السطح يظهر الأطفال الطلائعيون

وهم يخترقون صفار الأرض اليباب بنظام شديد المهابة، شديد الرتابة. في ثلثي الشاشة الباقي.

– أقف على الجانب اللبناني من الحدود مع «نون». يمكنني رؤية الطريق الملتوي كله بين المصنع ودمشق، طريق ترابي متعرج يصب في فندق سميراميس، حيث المسرح العسكري، حيث خدمت أربع سنوات، حيث توقف الزمن.

نون تحاول أن تقنعني بمرافقتها إلى سورية، وأنا أرنو إلى سميراميس وأهز رأسي إلى الأعلى رافضاً مرافقتها، تغريني ببطاقتها الأممية، كل ما علي فعله هو الجلوس إلى جانبها، ولن يزعجني أحد لأنني برفقة «الأمم المتحدة». أحوّل نظري عن سميراميس لأرى نون. نعم نون هي التي تتحدث، وهذا هو شكلها، لكن ودون أي تغير في الصوت أو الشكل أراها ستافان دي مستورا، والسيدة الممتلئة المسؤولة عن مفوضية اللاجئين (لا أعرف من هي، أو من هو المسؤول عن مفوضية اللاجئين، لكن المنام قرر أنها تلك السيدة). أبتسم لنون... تعبر نون الحدود اللبنانية وأنا إلى جانبها، ولكنني أراقبنا نحن الاثنين، إذ لا زلت واقفاً على الجانب اللبناني من الحدود. نصل إلى الحدود السورية، تُخرِج نون بطاقتها، يبتسم الجندي ويعيد إليها بطاقتها، ثم ينزلني من السيارة، لاوياً يدَيَّ خلف ظهري.

أقول أنا الباقي على الجانب اللبناني من الحدود:

– قلتلّك.

وأبتسم ابتسامة نصر.

– أجلس في المقعد الأمامي لسيارة بيضاء، بيضاء إلى درجة مثيرة للشك، الجانب الأيسر من السيارة خارج كادر الحلم، لكني أعرف أن إيمان هي من تقود، أسمع صوتها يطمئنني بأن لا حواجز للأمن العام اللبناني على الطرقات التي سنسلكها في بيروت. أجلس في المقعد مشدود العضلات والأعصاب، نصير فجأة في شارع في الضاحية الجنوبية ومخيم شاتيلا والداون تاون معاً، ولكننا في سورية لا في لبنان، المشهد لونه حليبي، كأن غلالة من الشاش مُدَّت أمام عيني. نرى في البعيد ظلال حاجز، صوت إيمان يقول لي: لا تخف، سنمر. هكذا قالتها بالفصحى، لكن لم يكن صوتها يوحي بأنها هي نفسها تصدق ما تقوله. تتضح ظلال عناصر الحاجز، أحدهم يتقدم باتجاهنا حاملاً بندقيته بيد، ومشيراً إلينا بالاقتراب باليد الثانية. لا تداخل في الفصائل والأماكن فقط، بل في الأزمنة أيضاً، إنه زمن الحرب الأهلية اللبنانية وزمن قمع الثورة السورية معاً، فالعنصر من حزب الله وميليشيات الدفاع الوطني السورية وميليشيا القوات اللبنانية، ومنتم إلى حركة فتح. (هذه ليست محاولة أدبية لخلق مقارنة أو لإحالة ما، لا، في المنام كان هذا العنصر كل ما ذُكر فعلاً). أقول لإيمان: سيقتلني حين نصل إليه. وأضع يدي على قبضة الباب مستعداً لفتحه والقفز من السيارة، ولكن بينما أنا أنظر إلى يدي الممسكة بالقبضة أسمع صوت إصبع ينقر على الزجاج الأمامي للسيارة. أرفع عيني باتجاه الصوت. العنصر إياه يوجه فوهة البندقية إليّ وهو يبتسم. أسحب قبضة الباب لأفتحه وأنا أنظر في عيني العنصر، لكنه يطلق النار وتتسع ابتسامته. يتكاثر اللون الأبيض، يختفي العنصر والسيارة والشارع. أشعر بأنفاسي تتلاشى. يصبح كل شيء أبيض إلا رأسي الذي أراه من الخلف في منصف المحيط الأبيض. أسمع صوتي يقول لي: أنت تموت. أسمع صوتي

الآخر: أنت لا تحلم، أنت تموت فعلاً. يخرج صوت من دماغي هذه المرة يقول لي: ولك يا حيوان إنت ولا مرة متت بالحلم، هالمرة عم تموت، ولك إنت عم تموت، فيق فيق، إنت ما عم تموت بالحلم، عم تموت عن جد.

أستيقظ مرعوباً. كان رأسي مستنداً إلى الجدار، ضاغطاً على حنجرتي، بالكاد أتنفس، كنت أموت فعلاً. أنقذني دماغي، لا كفاعل خير، أنقذني لينجو هو أيضاً.

ملاحظة طويلة:

المنامات الثلاثة الأولى حلمت بها خلال فترة اعتقالي القصيرة/ الطويلة.

منام الجَمل كان أول منام أحلم به بعد خروجي (مرت خمسة أشهر بعد خروجي دون أي منام، ولا حتى كابوس).

مناما سميراميس والحاجز تم إنتاجهما في بيروت.

المنام الجنسي حلمت به في فرع المنطقة، حيث كنت أؤمر في أيامي الأولى مع مجموعة من المعتقلين الجدد بنقل الجثث من مراحيض الفرع في الأسفل إلى شاحنة كبيرة مصندقة تقف سادّةً الباب الداخلي للفرع. في فرع الموت ذاك حلمت بالجنس، وكأنه إرادة الحياة في وجه موتٍ كنا نراه وننتظره كل يوم.

هناك في حلبات الجريمة تلك لا يزال مئات الآلاف، منهكين، يائسين، ينتظرون الموت، ولكنهم يحلمون، وينتظرون الحياة أيضاً... ينتظرونها منا.

بو جدعان وبو معظاد يناقشان أزمة السويداء

– بس ليك وقت الجد نحنا بالجبل ولاد الخوثة، أحفاذ سلطان ماحداش بجيب طاريهن بالعاطل هه.

– يا سندي الواحد منيح يكون ابن الخوثة بالحب، بالعراس، بسهرات ظهر الجبل، أما بوقت مثل هالوقت... وَلو! بعدك عبتقول إنو نحنا أحفاد سلطان. الباشا قاد ثورة ظد فرنسا يا زلمة، فرنسا هه، مش وفيق ناصر، ثورة سورية مش درزية، صح؟

– إذا عبتلمّح حظرتك إنو نحنا لازم نوقف ظد النظام فطويلة على رقبتك هاي، نحنا صحيح إلنا ملاحظات كثيري عليه بس مظلّش قدامنا حلول، بظل الرمد أهون من العمى.

– من كل عقلك عبتحكي؟! ليش مش هاذا النظام نفسو هو يلي حاصر سويدا بالألفين؟ يا زلمة عأساس مشكلتنا مع البدو، آ الشباب يلي راحوا على إيدين الجيش قد يلي راحوا على إيدين البدو بعشر مرات. ليش لنرجع للألفين، يا زلمة كم شب من الجبل صار رايح تحت التعذيب؟

– إسا الوظع غير بالألفين، الله يرحمهن الشباب يلي عبروحوا بس... ليك، بما إنو جرمتك جرمة تيس بدي إشرحلك ياها بوظوح:

خيو إذا فاتوا تبعوت النصرة علينا مين بدو يوقف بوجهن غير الجيش؟ طيب فرظاً نحنا قلنا للجيش: خيي الجيش تيسروا، افرقونا بريحة طيبة، نحنا أبناش مشاكل مع الدرعاوية والجيش الحر والنصرة وهذول. وقلنا للدرعاوية والجيش الحر والنصرة وهذول: يا شباب حرام وجيرة ع اللي بقرب صوبكن من جهتنا، ويحرم عليكن تجوا صوبنا إنتو كمان. أها!!! شو يلّي بيظمن إنهن مايجوش صوبنا؟

– معك حق.

– شفت كيف!!

– بس برأيك الجيش يلي مش قادر يحمي حالو بيقدر يحمينا؟

– بناش يحمينا خيي، بس يعطونا سلاح.

– إنت مش ابن الخوثة ترى هه، إنت الخوثة نفسها، وك يا زلمة مَطلعوا المشايخ لعند الرئيس وقلهن بتعطوني السبعة وعشرين ألف متخلف عن خدمة العلم بعطيكن سلاح، أبتعطونيش ياهن بتقلعوا شوككن بإيدكن. بعدين السلاح منشان شو؟ يعني افترظ صار معنا سلاح شو منعمل فيه؟ منظل عم نقتل بعظ ل الله يفرجها؟ كيف بدو يفرجها هيك؟! خيي هذا النظام كنت معو ولا ظدو بالأخير بدو يروح، انشالله بعد خمسمية سنة، بدو يروح، أما درعا يا خيي شو بدو ياخذها من جنب سويدا؟! ولك أوروبا وأمريكا صاروا بالمريخ ودرعا بعدها جنب سويدا. السهل جنب الجبل، الجبل جنب السهل، من مليار سنة ولمليار سنة.

– معك حق.

– شفت كيف!

– آ بس كمان يعني الواحد أبيعرفش شو بدو يسوي، ويلك توقف

مع النظام بتصير بدك تقتِل وتقتَل معو، وويلك توقف مع الدرعاوية وربعهن بتروح سويدا، إذا النصرة بدها تتزعرن لا الدرعاوية ولا الجيش الحر بيطلع بإيدهن يردوها، بعدين انشالله مفكر إنو النظام بدو يتركنا هيك إذا وقفنا ظدو؟! عذمتي غير يدِك سويدا مثل ما دك باقي البلد.

- معك حق.

- شفت كيف!

- بس إذا وقفنا مع النظام مننجا بالوقت المنظور ومناكلها عالمدى البعيد، وإذا وقفنا مع الدرعاوية وربعهن مناكلها إسا يمكن بس منزمط عالمدى البعيد، ويمكن نزمط من إسا كمان، حتى بتعرف؟!! ممكن نكون أساس وحدة سوريا، مش سامع قديش عبينحكى عن التقسيم، إذا وقفنا ظد النظام بعدش فيهن يقسموا حوران على الأقل.

- طب ليك! أفيناش نلعبها مثل جنبلاط وأرسلان؟

- كيف يعني؟

- يعني واحد مع النظام وواحد ظد النظام.

- قررررر، ولك هات راسك لبوسو، ولك إنت رومل لا بل نابليون بو نابرت.

(صمت)

- أفيناش لأ.

- يه!!

- لأنو لنلعبها هيك لازم أول شي نكون متفقين إنو عبنلعبها، مش بعلمك عبنلعبها تقوم تقلب جد، بينقسم الجبل هيك وبصير نصو مع

النظام ونصو ظد النظام، وساعتها منكون خسرنا الجبل ودرعا وكل شي. هذوك جنبلاط وأرسلان خيي في ناس بتسمع كلمتهن، أما هون مَكل عشرين واحد براي.

– يا زلمة هاي النصرة من وين طلعتلنا بس بدي إفهم، يعني كمان لو الدرعاوية والجيش الحر بيخلصونا منها كانت انحلت، بس مالاش أمان النصرة، وقوايا العكاريت.

– عبقولوا إنو عنا هون بحوران مش كثير قوايا، بس بخوفوا والله.

– ولك آخ آخ.

(صمت)

– لونو انقلع من الأول وفتحلو شي عيادة بفرانسا ولا أمريكا مَكنش ريّحنا وريّح البلد.

– مفكر بالسهل الواحد بيفتح عيادة بفرانسا ولا بأمريكا؟!.... اشراب متة اشراب.

الثانية والربع بتوقيت موسكو

/ / موسيقى نحاسيات/ /

المذيع: هنا دمشق، والساعة الآن تمام الثانية والربع بتوقيت موسكو، أيها السيدات والسادة إليكم نشرة الأخبار لليوم الإثنين الواقع في 4/ 9/ 2022:

/ / موسيقى نحاسيات/ /

– برئاسة السيد الرئيس الرفيق المناضل فلاديمير إيليتش بوتين عقد ليل أمس اجتماع استثنائي للجبهة الوطنية التقدمية، وحضر الاجتماع كل من السادة الرفيق الوحدوي صالح مسلم محافظ ولاية كردستان، أمير المؤمنين الخليفة أبو محمد الجولاني محافظ حلب، أمير المؤمنين الخليفة أبو بكر البغدادي محافظ ولاية الخير، الطفل المعجزة الدكتور بشار حافظيتش الأسد محافظ أوتستراد دمشق اللاذقية، الشيخ المقاوم آية الله حسن نصر الله محافظ بيروت وجبال لبنان، المارشال المرحوم رستم غزالي محافظ درعا، شيخ عقل الموحدين الروس نزيه جربوع محافظ السويداء وقائد شبيحتها.

كما حضر الاجتماع كل من السادة: الماريشال زهران علوش قائد فوج إطفاء الأمة مدير مكتبة بوتين الوطنية، الماريشال علي المملوك

مدير الأمن الوطني وزير الثقافة، الماريشال جميل حسن مدير المخابرات العامة نقيب الفنانين، الماريشال هاشم الشيخ قائد فرقة أحرار موسكو للفنون الشعبية رئيس الاتحاد الرياضي العام، اللواء إسلام علوش شقيق الماريشال زهران علوش مدير عام هيئة الإذاعة والتلفزيون.

افتتح الاجتماع بعزف النشيد الرسمي، عزفته فرقة الائتلاف الوطني بقيادة المايسترو خالد الخوجة، وعازف الكمان الأول الموسيقار الشاب هيثم المالح. استعرض بعدها المجتمعون برئاسة الرفيق بوتين بنود الاجتماع، وعلى رأسها بند مكافحة الإرهاب.

– بتوجيهات من السيد الرئيس فلاديمير بوتين القائد العام للجيش والقوات المسلحة، قام السيد بشار الأسد محافظ أوتستراد دمشق اللاذقية يرافقه السيد عبد الله الأحمر الأمين القطري المساعد صباح اليوم بزيارة تفقدية لمواقع قواتنا المسلحة في كل من الشيشان وأبخازيا وشرق أوكرانيا، وقد صرح الأسد بأن قواتنا المسلحة جاهزة للدفاع عن الوطن حتى آخر جندي فيها، فالوطن هو لمن يدافع عنه فقط، وتبرأ سيادته من شقيقته بشرى التي هاجرت إلى الإمارات قبل أكثر من تسع سنوات، فيما أثنى السيد الأحمر على الجهوزية العقائدية والأخلاقية لدى قواتنا الباسلة.

– بتوجيهات من السيد الرئيس الرياضي الأول فلاديمير بوتين قام السيد حسن نصر الله بافتتاح كلية الفروسية في جامعة بيروت الروسية، وأطلق على الكلية الجديدة اسم كلية الشهيد الفارس الذهبي باسل حافظيتش البوتين، حضر الاحتفال بالإضافة إلى الشيخ نصر الله كل من السادة الماريشال هاشم الشيخ رئيس الاتحاد الرياضي العام،

والسيد حافظ بشاروفيتش البوتين مدير مدرسة البوتين للعلوم، والسيد رامي محمدوفيتش مخلوف، والحصان الأغر ملك ملوك أفريقيا عميد الخيول العربية.

– بتوجيهات من السيد الرئيس فلاديمير بوتين القائد العام للجيش والقوات المسلحة، أقال الماريشال زهران علوش كلاً من اللواء حافظ مخلوف رئيس شعبة التنسيق في الفوج، واللواء أبو قتادة آمر سيارات الإطفاء في الفوج، وذلك بسبب الإهمال؛ إذ أكدت التحقيقات أن سيارات الفوج قامت برش الإرهابيين الذين قاموا بأعمال شغب في شوارع سمولنسك قبل عامين بحمض كلور الماء المخفف بالماء وخالي الرائحة، مخالفين بذلك أوامر الجبهة الوطنية التقدمية التي كانت تقضي باستخدام حمض كلور الماء المركز، وبذلك استحق اللواءان المهملان جزاء تراخيهما في حماية الوطن والمواطن.

– خبرنا الأخير من ولاية الخير: في حفل أقيم بمناسبة الحصاد في ولاية الخير، وبحضور السيد أبو بكر البغدادي محافظ الولاية، والماريشال علي المملوك وزير الثقافة، أعلن كل من الفنان فضل شاكر والفنانة هيفاء وهبي إطلاق أغنيتهما الجديدة «تسلم للشعب يا بوتين»، يذكر أن الأغنية هي من نوع ديو 2002، ومن كلمات وألحان اللواء إسلام علوش، وإخراج نجدت إسماعيل أنزور.

أيها السيدات والسادة، كنتم مع نشرة الثانية والربع بتوقيت موسكو من دمشق، دمتم برعاية الله.

/ / موسيقى نحاسيات/ /

أغنية:

فلاديمير بوتين قائدنا

يا بو الجبين العالي
تسلم وتصون بلدنا
من غدرات الليالي.

حمامة زوسكيند

(... حين لا تعود تعتقد أن الأمور يجب أن تتحسن «في إطار الموجود»
أنه لا يجوز للأغنياء أن يبقوا أغنياء وللفقراء أن يبقوا فقراء
أنه لا ينبغي أن يدان الأبرياء وأن يُصدِر المذنبون الأحكام
إذا ذهبت الشفقة والوجع إلى الشيطان، والشيطان إلى الشيطان
عند ذاك
إذا ما تحقق وضع جديد
إذا لم تعد العاقبة تُدخَل في الحسبان
إذا ما جاء «أخيراً» أخيراً
عند ذاك
عند ذاك انهضْ ثانية ومزق النظام القديم الشائن، ثم صِرْ مختلفاً، بذلك يتغير العالم، بذلك يتغير الاتجاه، أخيراً: عند ذلك أدخلْه).

إنغبورغ باخمان-العام الثلاثون

-1-

بيت قديم، قديم جداً، في حي اليهود في دمشق القديمة جداً. صيف دمشق صيف وقح عادةً، يكاد يعريني من كامل ملابسي بأصابعه

الفظة. اليوم نجري التمارين الأخيرة قبيل افتتاح أول عرض مسرحي أخرجه في حياتي.

صوت مطر، أيمطر حزيران الدمشقي؟!

بما أنها تمطر الآن فحزيران الدمشقي يمطر إذاً.

حزيران ممطر في الخارج، ولانا تقف مبتسمة في الداخل. أيّ لحظةٍ هذه؟!! مملكتي مقابل لحظة أخرى مثلها.

أقف على عتبة البيت القديم الذي تحول إلى Art cafe. يفصل جسدي الآن بين همهمة المطر ورائحة العرض الذي سنقدمه تحت عنوان «الآن/ هنا».

ما الذي يجري الآن هنا؟

لا شيء مهم، مجرد ثورة.

أقف على عتبة البيت القديم غير مصدق أن حزيران هذا يتجرأ على لعب دور أيلول، هذه وقاحة من نوع آخر، لكي تلعب دور شخص ما عليك أن تدرس أربع سنوات في المعهد العالي للفنون المسرحية، أو على الأقل أن تكون مطّلعاً على ستانيسلافسكي مثلاً، وهو ما لم يفعله حزيران بالتأكيد، ومع ذلك أعجبتُ بأدائه لشهر أيلول. ربما لأنني مخرج مبتدئ، مخرج بالمصادفة، فأنا لم أدرس الإخراج المسرحي، بل تخرجت في قسم الدراسات المسرحية، ولم أكن أخطط لأصبح مخرجاً مسرحياً؛ بل أردت وأريد أن أصبح كاتباً مسرحياً، ولكن هاني الأطرش ضحك علي وجعل مني مخرجاً:

– كلهن عشر صفحات ولو، بدها بيتر بروك الشغلة؟

الصفحات العشر التي يتحدث عنها هاني هي مشهد بين وليم

شكسبير وبن جونسن في مسرحية «بينغو» لإدوارد بوند، وكان لهاني ما أراد.

«الآن هنا» هو عنوان عرضنا، والآن هنا ثورة تطالب بالحرية ضد نظام ديكتاتوري. مظاهرات في معظم أرجاء البلد تقمع بالموت والاعتقال، وتقمع بإعلام حريص على إفشال أي تحرك ضد أي نظام آخر في المنطقة، وربما في العالم، تقمع بوعود إيردوغان بدعم حرية السوريين وبقلق بان كي مون، بشجب المجتمع الدولي، بخطوط باراك أوباما الحمراء، بحصص اللاجئين الغذائية، وبصورة طفل عذب حتى الموت في أقبية المخابرات السورية، صور تستدرج الدموع، ولكن لا تذرفوا دموعكم الرقيقة كلها، قد تحتاجونها للمجازر القادمة، نحن لا نزال في البداية فقط.

-2-

أدخل مبنى الأمن العام في بيروت، غريب حقاً كيف تفقد أمنك العام حين تدخل إلى مبنى الأمن العام.

باسم القانون يستطيع رجال الأمن حمايتك، كما يستطيعون قلب حياتك رأساً على عقب أيضاً. يشترون صمتنا بحمياتنا والحفاظ على أمننا، أو بالأحرى يشترونا بالتخويف، عملية ابتزاز قانونية.

أمن من يحفظ رجال الأمن الفقراء أولئك؟! حراس النظام هؤلاء كم يشبهون جوناثان نويل بطل رواية باتريك زوسكيند «الحمامة»؟ كم؟!

كم أشبهه أنا؟ أي نظام أحرس؟ أقول لنفسي: أياً يكن النظام الذي أحرسه فأنا لا أحرسه بالتهديد، لا أحرسه بالسيطرة على حياة

الآخرين، بتخويفهم. أنا فرد، أما الأمن العام والبنك والسفارة ومعهد الأبحاث السياسية، والجيش، والجامع، ومحطة التلفزيون ومنظمة الـ NGO فهي مؤسسات. مؤسساتنا، مؤسساتنا القائمة على ترهيبنا ورسم حيواتنا وفق مسارات تريدها هي لا نحن، لصالح من كل ذلك؟!

أدخل مبنى الأمن العام في بيروت، أنا عمر الجباعي، أحب أغاني الشيخ إمام، وأرى أن تشيخوف وبيراندللّو أعمق من شكسبير والكلاسيكيين الفرنسيين بكثير، وأن سارة كين أكثر شعرية في مسرحها من جوته في شعره. أحب النساء الممتلئات اللواتي يشبهنَ أمي، أعاني من حكة مستمرة في فخذي الأيمن لأسباب مجهولة حتى الآن... من قال إنّ شكسبير كاتب مسرحي أصلاً؟

أنا عمر الجباعي، درست المسرح في سورية، طموحي وشغفي في الحياة أن أجعل من المسرح فناً أكثر جماهيرية. لا أحب أن يشاركني أحد في طعامي، ولست بخيلاً، في حال كان الله موجوداً فإنني أحترمه فقط لأنه خلق النساء والبندورة. بكيت ذات مرة حين رأيت صورة لدمشق على صفحة أحد الأصدقاء على Facebook، ثم شتمتها بكل ما أملك من ألفاظ نابية، دمشق الممتلئة مثل أمي، عشيقتي التي أكرهها. غادرتهما قبل ثلاث سنوات، وليتني لم أفعل، وليتني فعلت.

– ما بدي الاسم، عطني رقم الملف.

يطلب منّي موظفو الأمن العام رقم ملف هم أوجدوه، وهم رقّموه، وهم ملؤوه وصنّفوه وأرشفوه، لحماية الأمن العام للبلد، لن تجد في ملف الأمن العام أي شيء عن البندورة أو شبيهات أمي أو رائحة القهوة، ولا رائحتي حتى.

– ملف رقم 1415.

- رجاع بعد أسبوعين.

- بس أنا محتاج الباسبور، معزوم على مهرجان مسرحي بـ غراتس بالنمسا. ما بعرف كيف بينلفظ اسم المهرجان، كلمة ألمانية طويلة، بس الموضوع ملحّ بالنسبة إلي، جواز سفري عندكن من ست شهور، وكل أسبوعين بتطلبوا مني راجعكون بعد أسبوعين. شو المشكلة بالضبط، فيني أعرف؟

- رجاع بعد أسبوعين.

-3-

أستند إلى فك الموت منتظراً دوري، التهمَ أربعة من زنزانتنا وحدها خلال أسبوعين، لا أستطيع فعل شيء سوى الانتظار. أحلم بقطعة سكر وبعرض أسجن فيه المتفرجين لساعة واحدة فقط، سيكون الجمهور من دول مختلفة: سورية، بريطانيا، الهند، فرنسا، رواندا، النمسا، جنوب أفريقيا، سويسرا، تشيلي، كندا، وغيرها. ستكونون أنتم الجمهور، أغلق عليكم جميع المنافذ وأحشركم حتى تكاد أنفاسكم تنقطع، عشرون سنتمتراً للفرد الواحد. سأعتقلكم لساعة واحدة في ظرف يشبه أحد ظروف الاعتقال التي تستمر أشهر وسنوات في الواقع، سأعفيكم من وسائل التعذيب المهلكة التي رأيتها في المعتقل، سأكتفي بحشركم في مكان مغلق ومعتم لساعة واحدة فقط، أخرج بعدها لأعتذر لكم، في انتظار غودو لن تقدم الليلة... يبدو بيكيت تافهاً جداً عندما تكون معتقلاً، تبدون أنتم تافهون جداً عندما لا تحركون ساكناً.

أخرج من المعتقل حياً في الخامس من آب 2013، أفاجأ بأن الأرض ما زالت تدور.

-4-

- Hellllllllooooooo Sabine, I have just received my passport with 2 months residency started in 7th February and will expired in 7 April.

قبل عام دُعيتُ لإقامة فنية في غراتس ككاتب ومخرج مسرحي، وحتى الآن أنتظر أنا في بيروت، وسابين ومارتن في غراتس، أن يخرج جواز سفري من الأمن العام اللبناني ممهوراً بإقامة قانونية في لبنان كي أستطيع تقديم الجواز إلى السفارة النمساوية في بيروت.

قبل عامين كنت أشعر أنني سجين في بيروت، لا أوراق ثبوتية تثبت للنظام الرسمي العالمي أنني موجود، لا جواز سفر، لا هوية شخصية، لا إخراج قيد، لا شيء، لم أكن موجوداً بالنسبة إلى مؤسسات النظام، رغم أني أسير في الشوارع فأزيد زحمتها، آكل وأتبرز مساهماً في الاحتباس الحراري، أدرب بعض الشباب على المسرح التفاعلي لعل المستقبل ينفرج يوماً، وأخرج عرضاً مسرحياً بعنوان «أوكنو» أو النافذة، لكاتب بولندي اسمه «إيريناووش إيردينسكي» مات بكبد مثقل بالكحول عن عمر لا يتجاوز الخامسة والأربعين.

وقتها لم أكن موجوداً رغم كل ذلك.

قبل ثلاثة أعوام كنت قد عبرت الحدود السورية اللبنانية هارباً من خدمتي العسكرية الإلزامية في سورية، هارباً لاجئاً كملايين السوريين الذين تحولوا إلى أرقام في سجلات الأمم المتحدة، 500000 قتيل تقريباً في الحرب السورية، 260000 معتقل تقريباً في السجون السورية، 5000000 لاجئ تقريباً حول الحدود السورية... تقريباً.

أنا من هؤلاء الـ «تقريباً»؛ أي سوري هو «تقريباً». هو «تقريباً» كان لديه طموح ما، «تقريباً» متزوج، والآن تقريباً هو ميت.

قبل أربعة أعوام تقريباً اعتقلت لثلاثة أشهر تقريباً وتم إطلاق سراحي.

قبل خمسة أعوام تقريباً كانت الثورة لا تزال حية، وكان كل العالم تقريباً يسعى لإخمادها، هل هذه تهمة؟ نظرية مؤامرة؟ رمي للكرة في ملعب الآخرين؟ لا، إنما هي الحقيقة تقريباً.

قبل ستة أعوام كان من المفترض أن تنتهي خدمتي العسكرية الإلزامية، وأن أعود إلى الحياة من جديد، تم الاحتفاظ بي كما آلاف الشباب الذي التحقوا بالخدمة الإلزامية عام 2010، تخدم في الجيش لتحمي الوطن والشعب، تقريباً. يدربونك على القتل لكي تحمي الوطن والشعب من قاتل ما لا تعرفه، قاتل تم تدريبه مثلك ليحمي الوطن والشعب من قاتل آخر هو أنت غالباً.

قبل سبعة أعوام التحقت بالخدمة العسكرية الإلزامية التي تمتد لسنة ونصف لأنها إلزامية. تم فرزي إلى «المسرح العسكري» وهو مسرح في قلب العاصمة يقوده ضابط لا يعرف من المسرح سوى مسرح العمليات العسكرية، ومع ذلك فهو «سيدي» هناك. لم تكن ثمة ثورة وقتها، وإنما جمر فقط.

هل تعني هذه السنوات السبع شيئاً لموظفي السفارة النمساوية في بيروت؟

لا، ما يعنيهم هو ألا يكون اسمي أو تاريخ ميلادي في جواز السفر مخدوشاً، لم تطلب مني موظفة السفارة السيدة «إينغرد» نصاً مسرحياً كتبته، أو فيديو لعرض من إخراجي، ولا يهمها إن كنت أعرف أن جمهور فيينا سخر من الطفل لودفيغ فان بيتهوفن بسبب شَعره المستعار أم لا، لا يهمها إن كنت أعرف مغامرات الجندي الطيب «شفيك» في ربوع

إمبراطورية النمسا-المجر أم لا، وهي غالباً لا تعرف أن «أسمهان» غنت «ليالي الأُنس في فيينا»، فخدش صغير في جواز السفر أهم من كل ذلك.

هل غنى مطرب أو مطربة من النمسا لدمشق أو لحلب؟!

-5-

يحترق منزلي في بيروت. أفقد كل أرشيفي المخزن على اللابتوب والذواكر الإلكترونية. سابين تخبرني عبر الإيميل بأن السفارة لن تختم لي فيزا على جواز سفري الجديد لأنني استصدرته من سورية، وأنهم في السفارة يريدون جوازاً جديداً آخر من السفارة السورية في بيروت وليس من سورية لأثبت أنني عمر الجباعي. جواز سفري هو الإثبات، ولكن السفارة تريد إثباتاً بأن الإثبات إثبات. يا سلام، أفكر في أن أطلب بدوري إثباتاً بأن السفارة هي السفارة، وبأن موظفي السفارة هم موظفو السفارة، ولكني أتراجع، فللسفارات حراسها، كما لمراكز الشرطة حراسها، كما للبنوك حراسها، كما للنظام السوري حراسه، وكما لكل نظام حراسه.

هكذا بكل بساطة تنتهي رحلتي إلى غراتس قبل أن تبدأ، ربما لا تعرف السفارة أن الأمر بهذه البساطة حقاً. ربما من حقها أن تطلب إثباتاً يثبت الإثبات، فالمؤسسات الحكومية بهذا العنف عادة، وأنا من حقي أيضاً أن أرفض، فإثباتي بين يدي، وكما تقول القاعدة القانونية: البيّنة على من ادعى، وهم من ادعوا أنني لست أنا، فليثبتوا هم أنني لست أنا.

ولكن يبقى السؤال: كيف يحق لجهة ما أن تقرر أفعالنا في الحياة؟!

كيف نسمح بذلك؟! وهذا ليس بسيطاً فيما أعتقد.

حمامة صغيرة منعت جوناثان نويل في رواية زوسكيند من الذهاب إلى عمله، عائق صغير غير متوقع في صباح يوم عادي هز حياة الإنسان حارس البنك ذاك. ماذا لو كانت تلك الحمامة ديناصوراً عليك مواجهته كل يوم يا عزيزي زوسكيند؟

رسالة إلى سنيّة صالح

شيء ما:
«ماذا تفعل في الحرب؟»
«أهرب»
«أغني مثل غراب»
«أمرض»
«ربما أموت»
«وأنت؟»
«ألتصق أكثر وأكثر بمن أحب»[1].

أول مرة قرأت فيها قصيدتك هذه لم أكن أعرف الحرب يا خالة، لم أكن قد مارستها بعد. في عام 2010 كانت الحرب تعني دبابات في وجه دبابات، مضادات للطائرات في وجه طائرات، كانت الحرب يومها جنوداً مغاوير يسيطرون على تلال ودشم للعدو، وكانت دائماً على أرض الجولان الذي لم أعرف حتى الآن كيف فقدناه، ولا كيف سنستعيده.

1- سنية صالح، ديوان حبر الإعدام، 1970.

في ذلك الزمن قصيدتك يا خالة سنية جعلتني أرى في الحرب فرصة رومانسية، وسيلة حب ترفع الأصبع الوسطى في وجه الموت، الحرب تصبح نقيضها، تصبح سلاماً، فأعرف النقيض بالنقيض. كم هي جميلة تلك الحرب التي ستجعلني أغني كغراب، وإن مت فسيبكي من التصقت بهم حباً لا على موتي، فالشهادة عرس، بل على نشازي وأنا أنعق فرحاً بإطلالنا على طبريا مثلاً.

ثم قالوا وقلنَ (ولم تقولي أنتِ) إنك كتبتها بعد كارثة حزيران، كارثة حزيران حربها ستة أيام فقط. هل تكفي ستة أيام لنلتصق أكثر وأكثر بمن نحب؟! لا أعتقد أن الوقت كافٍ لنعرف أن هناك حرباً أصلاً في ستة أيام، لذلك شطبت هذا الخيار وقررت أنك نبيّة تنبأت بحرب لبنان الطويلة. كل هذا الترف كان قبل أن تشرّفني الحرب الحقيقية بحضورها البهي، قبل أن يجعلني الرصاص أهرب، وقبل أن تغني الطائرات فوقنا كالغربان. لم تكوني نبيةً، إذاً، بل عاشقةً من العصور الوسطى أغواها فارس من فرسان الهيكل لا أكثر.

في الحرب اليوم يا خالة سنية تلتصق الأم ببناتها وأبنائها في قبو معتم كي لا يموتوا فرادى. يلتصق الجار بالجار أكثر لا حباً به بل لأن المكان لا يتسع لكل هذه العائلات، ثم تأتي القذيفة فتجعل المكان واسعاً أكثر مما ينبغي.

الحرب اليوم بين عدوين أحبا بعضهما فالتصقا أكثر وأكثر. العدوان لا يموتان، الأبرياء فقط يموتون، الأبرياء فقط يبحثون عن حفنة طعام في الأقبية المحصنة بردم بيوتهم، الأبرياء فقط من يهاتفهم أحمد من بيروت فيقول له أحدهم: «شريك أنا مضطر اتخبى، بحاكيك بعد ساعتين إذا ضليت عايش». وحدهم الأبرياء من يضطرون إلى الاختباء

هناك في الغوطة. أما من يعصرون دمها فيخلعون قبعاتهم محيين بعضهم البعض، ويتبادلون القُبل قبل الجلوس إلى مأدبة الطعام.

ما كنتِ ستكتبين لو عشتِ حربنا هذه؟ لو فاتتك فرصة الموت؟ هل كنتِ ستشتمين أولئك الذين خرجوا في مظاهرة يهتفون فيها بأنهم ما عادوا يريدون الحرية، وأنهم سيكتفون بالوحدة الوطنية؟ نعم، تخيلي هناك من شتمهم، أولئك الذين ذاقوا الموت في عيون أطفالهم، وقلوب آبائهم، وأجساد جداتهم، هناك من شتمهم لأنهم أردوا الحياة. ما رأيك أنتِ؟

خالتي سنية. هذي الحرب التي فرمتنا كساطور الجزار، الحرب التي يشنّها قائد البلد على البلد، هذي الحرب الطويلة منعتنا من الالتصاق أكثر وأكثر بمن نحب، منعتنا من أن نلتصق بذواتنا حتى، وغداً حين تنتهي، لن أجرؤ على العودة إلى سورية. هناك من يقول بأن العائدين سيكونون خونة للثورة، خونة لأهالي الغوطة وحلب وحمص وعفرين ودير الزور وغيرها من سورية. مع أن العائدين سيكونون من أهالي الغوطة وحلب وحمص وعفرين ودير الزور وغيرها من سورية. يقولون: كيف سنعود لنعيش مع من ارتكب كل هذه الجرائم؟ أما أنا يا خالتي فلن أعود لسبب آخر، لن أعود لأني لن أجرؤ على العيش مع أولئك الذين ارتُكِبت الجرائم بحقهم. كيف لي أن أنظر في عين السيدة التي حمت أطفالها بقماش حجابها فقط لا غير، وأطعمتهم من جسدها تحت القصف ذات يوم، وأنا في ذلك اليوم نفسه كنت آكل شريحة من سمك السلمون مع قليل من الزيت والليمون؟!

خالتي سنية. أعتقد أن ما فعلناه في الحرب هو أننا هربنا وغنينا كالغربان ومرضنا ومتنا، ولم نلتصق أكثر بمن نحب، ولا أعتقد أننا سنفعل يوماً.

مشاهد قبل الاستيقاظ

شعاع ضوء يخترق زجاج النافذة دون أن يكسره. يرتطم بالجدار دون أن يصدر أيّ صوت. الدليل الوحيد على وجوده هو اللون الذي يتركه على الجدار. كيف يفعل الضوء ذلك؟ يبتسم المساعد أول توفيق، يثبت صورة لحافظ الأسد على جدار الغرفة وهو يخبرني بأنه أحق من غيره بالثورة على الأسد؛ لأن ابن الحرام (يقصد القائد الخالد حافظ الأسد) أصدر مرسوماً يجرّم سرقة الآثار والمتاجرة بها. يرفع المساعد أول توفيق كأس العرق ويشربه بصحة السيد الرئيس وهو يقهقه ضاحكاً. كأس العرق يرتجف في يدي. دراجتي الهوائية تمر على الخط الجانبي متجاوزة الرتل الطويل من السيارات المنتظرة على حاجز جرمانا. أنظر إلى سيارة دفع رباعي فارهة بازدراء. أنا أمر، والسيارة الفارهة ذات الزجاج الأسود والـ «آنطينات» تقف في الصف رغم جعير زمورها. هع. العقيد أيهم يقول: الإرهابيون قتلوا أربعمئة شخص في داريا هذا المساء. أنظر إليه موافقاً، في الصباح يقرأ علينا النشرة السياسية: جيشنا قتل أربعمئة إرهابي في داريا بالأمس. لا يكلف العقيد أيهم نفسه عناء الشرح حتى. أحجار الطريق التي تعبد الشارع المستقيم وسوق الحميدية رائعة. أشعر بالأرض الصلبة تحتي

وأنا أتدحرج مخترقاً دمشق القديمة على الدراجة الهوائية. حمدو يقذف كرات الثلج علي أمام المسرح العسكري قرب جسر فكتوريا. أشعر بلهجته الحلبية في كل إصابة تصيبني بها الكرات. أفرح لابتسامة حمدو. عطر اسمه هاملت... أكره شكسبير. نركض أنا وفراس من الآروما كافيه إلى أمام دير اللاتين. سيارة أجرة تحترق بعد سقوط قذيفة هاون، نكمل أنا وفراس باقي يومنا في «بيجز كافيه-الشعلان». أبي يسير بقربي في «مظاهرة المثقفين» في الميدان. يصرخ مع المظاهرة، فمي مقفل، فأنا عسكري، ولكن: الشعب يريد إسقاط النظام. كيف يفعل الضوء ذلك؟ بيروت مدينة قبيحة. الكنبايات في منزل أوس مريحة جداً. الرقيب أول سمير جالس بكآبة يلف سيجارة من التبغ البلدي، ومبسمه المصنوع من الزيتون في فمه، كان يسكن في منطقة الكبّاس حين هاجمها مسلحو المليحة. قال لي بلهجته الطرطوسية الطريفة بعد ذلك بأسابيع: مَّيقصفوين بالطيران، آبدك ياهين يهجموا عالكبّاس؟! لا والله بيهجموا عالكباس وعلى مية كباس. حسام يزيل الحواجز مع مجموعة من الجيش الحر كي يهاجموا دمشق حين تبدأ الصواريخ الأمريكية بقصف مواقع الجيش السوري رداً على مجزرة الكيماوي التي ارتكبها الجيش. يومها كان يمكن أن نقف وجهاً لوجه وكلانا مستعد لقتل الآخر. يبتسم حسام، يمرر لي سيجارة الحشيش وهو يخبرني بذلك. بطاطا مشوية مع الزبدة وخضار أخرى. كلنا مجتمعون في منزل أوس والأمل يخردقنا. صبحي يحرد لسبب مجهول حتى بالنسبة إليه ويغادر في الواحدة بعد منتصف الليل. سيارة كيا صغيرة تسير بهدوء في شوارع مشروع دمر، فيروز تغني لملمت ذكرى لقاء الأمس بالهدب، لانا تتقصد المرور فوق حفر الطريق، تبتسم قبل كل حفرة. غيفارا تحضر لي شامبو وأشياء أخرى وتنتظرني

خارج المسرح العسكري. صابون الجيش لا يكفي. انفجاران متتاليان في جرمانا، دراجتي الهوائية بقربي وأنا أجلس على الرصيف بفم مفتوح. عيناي مفتوحتان لا تريان إلا الغبار والفراغ، أعود إلى البيت، أدير التلفاز على قناة إخبارية أجنبية كي أتأكد من وقوع الانفجار. قهوة في ساروجة، همس وتلميحات، جيل كامل يضحك، ذلك البريق في العيون لا يمكن نسيانه. أنا أذوب بين يدي وأظل حياً. كيلو سودة نيّة على البرندة في بيت جدي. الحاكورة خلفنا أنا وطارق ابن خالتي وفاء الذي يراقبني بفرح وأنا ألتهم السودة بعد أسبوع من خروجي من فرع فلسطين. الجثث في فرع المنطقة. غير قابل للتصديق، غير قابل للنسيان. الرائحة أيضاً. كيف يفعلها الضوء؟ أبو يوشع يعانقني بعد عودتي للخدمة العسكرية، ثلاثة شهور من الاعتقال ليست سبباً للتسريح. لم يعانقني أحد آخر في القطعة العسكرية سواه... إلا سراً. لن أعبر الحدود، واضح أنه مزوّر، عليك أن تصدر لي جوازاً جديداً. ماري الياس، نائلة الأطرش، حنان قصاب حسن، سمير عثمان، أبي غسان، على طاولة واحدة تقريباً في شام محل في دمشق القديمة حيث سأقدم أول عرض مسرحي من إخراجي. أسامة ووفاء حضرا، اكتمل العدد، أشعر بالفرح بعد الكأس الثالث. يامن صوّر العرض واختفى بعد ذلك بسنة في تفجيرَي جرمانا. إنه بخير. عندما تضحك ديمة تزرّ عينيها، من أجمل الضحكات التي عرفتها في حياتي. مكتبة عتيقة، مكتبة الذهبي التي كنت أتسابق أنا وأسامة كالأطفال في إخراج الكتب النادرة من على رفوفها. المهند حيدر سرق منها مسرحية «مستر دولار»، لم نعرف إلا لاحقاً. صرت أحتقر مهند. لم يكن مضطراً إلى السرقة، قتيبة يثق بي لذلك تلهى بترتيب كتب مكتبته، ولكن مهند سرق المسرحية. قتيبة استشهد بالتعذيب بعد عام تقريباً. أبو خالد تحت

الجسر يبيع الكتب المستعملة أيضاً. أمي تراني أبكي إثر استشهاد طبيب صديق لي. تقول لي بعد صمت إنها لا تعرف ما الذي أفعله، ولكن في حال حدث معي أي شيء فـ «خليك زلمة وقد حالك». لم أتذكر هذه الجملة حين اقتادوني إلى فرع المنطقة. سقف دير اللاتين الأحمر، أمامه تتمايل رؤوس نخلات ثلاث، وأنا في الأسفل ممدد على كرسي اسمنتي في بيجز الشعلان أراقب حركة ظل النخلات على السقف القرميدي الأحمر. ممتلئ بالسكينة. ضوء الشمس يدخل من الزجاج دون أن يكسره ويرتطم بالجدار دون أي صوت. أستيقظ. بيروت مدينة قبيحة جداً.

سورية 2032

يفتح أبو جاستن الجباعي باب بيته في حي ما من مدينة سورية ما، وخلفه تصطف العائلة مبهورة بسلامة البيت وبالدمار من حوله. يُدخِلون متاعهم ويجلسون عليه. لو كان جاستن معهم لأرسلته الوالدة في طلب فروج مسحب من أقرب مطعم، الفروج المسحب غير متوافر في كندا. بات كالفردوس المفقود بالنسبة إلى بنات وأبناء أبو جاستن.

جاستن الجباعي يفتح باب المنزل في مونتريال، يفتقد أُنس العائلة للحظات، يتجاوز العتبة داخلاً برجله اليمين، يشعل الأنوار ويشغل أغنية لجاستن بيبر عله يكسر حنينه، ولد جاستن الجباعي عام 2014 بين يدي رئيس وزراء كندا آنذاك جاستن ترودو، بلغ الثامنة عشرة قبل بضعة أيام، كندا بلده، سورية عائلته، القشة التي أمالت كفة ميزانه للبقاء في كندا هي أنها بلده، كما أنه في سورية ملزم بالخدمة العسكرية، لقد تجاوز الثامنة عشرة... هما قشتان إذاً، بوزن فيل.

عمل أبو جاستن الجباعي طوال حياته في المسرح، درّب ممثلين، كتب مسرحيات وأخرج أخرى، ويعتقد أنه سيجد مكاناً لخبرته في سورية. ما فات أبو جاستن أن في سورية أيضاً كان هناك من يعمل في المسرح ويراكم الخبرات. حين كان في كندا كان يعتبرهم أنصاف

مواهب، لا كرامة لديهم، من ذا الذي يقدم عرضاً مسرحياً تحت حذاء الدكتاتور؟ لو كانت لديهم نصف موهبة لما استعصوا في سورية مدعين أنهم يقاومون السنوات العجاف وعسف الحكم بمسرحياتهم فيما البلد تخر على ركبتيها ساجدة تحت السوخوي والبدلات المموهة. أيّ مقاومة مضحكة! هم ببساطة لو خرجوا لفقدوا الشيء الوحيد الذي يعطي أعمالهم وزناً: الكارثة. أما هو في كندا فقد ساعد مئات اللاجئين مستخدماً المسرح التفاعلي وسيلة لذلك، عانى معهم صدماتهم وفجائعهم، قدّم عروضاً في مونتريال وهانوفر وحتى في نيويورك وباريس وبرلين عن وحشية النظام في بلده الأم، وعن حاجة اللاجئين إلى الدعم. صحيح أنه حوّر الكثير من النصوص لتلامس القضية السورية بطرق جلفة أحياناً لتصبح مناسبة لما أعلنه الممولون، لكن كل ذلك كان في سبيل الصوت، يريد أن يُسمِع العالم صوت بلاده الجريحة. حتى في الطائرة وهو عائد إلى بلده الأم ظل يشعر بأنها عودة خاطئة، وأن الحكومة الكندية أرغمته على المغادرة كي تسكته، لا يريدون أن يسمع العالم الحقيقة. إنها مؤامرة على شخصه وعلى الفن الحقيقي الذي يمثله وعلى حرية السوريين.

كان أبو سعيد الجباعي جالساً في الهافانا حين دخل أبو جاستن. شعر بشيء يشبه الفالج يضرب بدنه. ها هو عالي المقام وحسن الهندام السيد الكَنَدي جاء ليسرق الرزق منا، لقد عاد ابن القحبة، هرب عندما ضاقت الحياة، ورجع إذ فُرجَتْ. يعرف أبو سعيد أن أبا جاستن نصف موهوب، وأنه لولا هربه من سورية، وتملقه مديري المنظمات الثقافية والممولين الثقافيين مستغلاً جنسيته كسوري على أكمل وجه، لولا كل ذلك لما كان أكثر من جامع بيانات مسرحية لصحيفة رخيصة. أكمل أبو

سعيد الجباعي قراءة جريدة إلكترونية تحدثت عن عرضه المسرحي الثالث الذي ينز ألماً ويعكس أصدق عكس المآلم السورية. رغم أن العرض لم يتطرق إلى شيء من ذلك، لكن أبا سعيد أبى إلا أن يكون عرضه في صلب الوضع السوري، وقمة فنه هو أن ذلك لم يظهر في العرض، هذا ما قاله للصحفي الذي كتب ذلك المقال في تلك الجريدة الإلكترونية قبل أكثر من خمسة عشر عاماً. لقد لاقى العرض رواجاً لافتاً في سورية، قيل عنه الكثير، وبلغ عدد عروضه أكثر من أربعين عرضاً. قبل عرضه هذا بخمس سنوات، أي قبل عشرين سنة من جلوسه الآن في الهافانا، أخرج عرضه الأول، لم يكن سعيداً قد ولد بعد، كذلك لم يكن جاستن قد ولد، كان هو وصديقه أبو جاستن في سورية، وكان عرضهما الأول قد فشل فشلاً ذريعاً.

لم يلتفت الفنانان المسرحيان إلى بعضهما، ولم يغادرا الهافانا، فكل منهما كان يراها حقاً له دوناً عن الآخر، طال الوقت، واقتربت ساعة إغلاق الدوائر الرسمية وهما متشبثان بكرسييهما وبإهمالهما المضحك لبعضهما، حتى إن الندل لاحظوا ذلك، أحدهم قال لزميله: إن لم يكن أحدهما يهتم للآخر فلماذا يهتم أحدهما للآخر إلى هذه الدرجة؟!

في مديرية المسارح والموسيقا كان أبو كفاح الجباعي يضع إشاراته بالأحمر على النصوص والعروض التي لن توافق المديرية على طباعتها أو عرضها. أبو كفاح الذي لقبه بعض أصدقائه تحبباً بـ«سبع الميدان» لجرأته في رفع التقارير الأمنية حتى بأقرب أصدقائه من الفنانين، أبو كفاح يريد أن ينهي مهمته ببطء ليمرر الوقت. افتتاح المسرح الجديد بعد أكثر من خمس ساعات، هناك سيلتقي الرئيس

مرة أخرى كما يعتقد، إنه بحاجة إلى هذا اللقاء كي لا يخرج من دائرة المتنافسين على حقيبة وزير الثقافة في الحكومة الجديدة التي يشاع أنها ستكون حكومة وحدة وطنية.

في السابعة إلا ربعاً كان أبو جاستن وأبو سعيد قد قضيا أكثر من عشر ساعات في محاولتهما الصامتة للسيطرة على المقهى/ المكان. في السابعة إلا ربعاً تمهلت سيارة سوداء بنوافذ سوداء على المنعطف المحاذي لمقهى الهافانا. نظر أبو جاستن وأبو سعيد إلى السيارة بعدما سمعا تمخط أحد ركابها. شُقَّت النافذة الخلفية للسيارة قليلاً، خرجت منها يد أبي كفاح ورمت محرمة مجعدة، ثم تابعت السيارة تهاديها باتجاه المسرح الجديد.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.
24. مغلقة بسبب الإصلاحات، منذر مصري.
25. منازل الأوطان، نجاة عبد الصمد.
26. كأننا لم نكن هنا، بشّار يوسف.
27. أن تكون إنساناً، هيفاء بيطار.
28. لا أضلع تطال الضفّتين، جهاد عبيد.
29. الحرب مرّت من هنا، رولا حسن.
30. أرض السنافر، عمر الجباعي.